الجزء الثانى

الكتابة التاريخية

الكتابة التاريخية

تعريف

التاريخ: تعريف الوقت، والتوريخ مثله. أرخ الكتاب ليوم كذا: وقّته، والواو فيه لغة. وزعم يعقوب أن الواو بدل من الهمزة[1]. وقد اختلف العلماء فى أصل هذا اللفظ، فذهب به بعضهم إلى العربية الخالصة، فقال: إن التاريخ مأخوذ من لفظ الأرخ، بمعنى ولد البقرة الصغير، لأنه يشبه الشيء الحادث كما يحدث الولد، فهو حدث جديد[2]. وعزاه بعضهم الآخر إلى الفارسية، فقال: إن أصله "ماه روز" بمعنى "يوم الشهر" فعربوها، فقالوا "مؤرخ" وجعلوا المصدر منها "التاريخ"[3]. وهو اشتقاق بعيد، لا يظهر فيه تقارب بين اللفظين العربى والفارسى .

ويتصل هذا القول – دون شك – بالخبر القائل بأن المسلمين تأثروا بالفرس فى أخذهم تاريخ الهجرة تقويما لهم، إذ أشار الهرمزان الفارسى على عمر بن الخطاب بذلك[4]. ولكننا نرجح الرأى القائل بعربية الكلمة، وإن كنا لا نشاركهم فى أنها مأخوذة من الأرخ، وإنما هى كلمة عربية قديمة مشتركة فى اللغات السامية، تلوح القرابة بينها وبين كلمتى "يرح" التى معناها "القمر" و"الشهر" فى العبرية[5]. ومن المعروف أن الساميين كانوا يحددون شهورهم بالقمر لا بالشمس، ولذلك كانوا يبنون تاريخهم على الليالى دون الأيام، كما هو الحال فى التقويم الهجرى الآن.

---

(١) لسان العرب، مادة "أرخ" .

(٢) المصدر السابق .

(٣) البيرونى: الآثار الباقية ٢٩، والخوارزمى: مفاتيح العلوم ٧٩ .

(٤) نفس المرجعين .

(٥) جب : دائرة المعارف الإسلامية، مادة "تاريخ" .

وعلى هذا الرأى نرى أن معنى كلمة "التاريخ" فى مبدأ أمرها كان "تحديد الشهر"، ثم اتسع فصار التوقيت العام أى تحديد عهد أى حادث من الحوادث. ولا زالت اللغة فى تطورها حتى شمل هذا اللفظ رواية الحادث نفسه من جهة، وتحديده من جهة أخرى، وكانت هذه الخطوة الأخيرة فى سبيل بزوغ كلمة التاريخ بالمعنى الاصطلاحى المعروف .

وأطلق لفظ التاريخ فى عهده الأخير على عدة معان متقاربة. فهو بمعنى التاريخ العام، أى تسجيل أهم الحوادث كما يظهر فى تاريخ الطبرى قبل الإسلام والكتب الأخرى؛ وهو بمعنى الحوليات، أى تدوين الحوادث عاما فعاما مثل تاريخ الطبرى بعد الإسلام وتاريخ ابن الأثير وغيرهما؛ وهو بمعنى تدوين الأخبار مرتبة بحسب العصور، مثل سيرة معاوية وبنى أمية لعوانة بن الحكم؛ وهو بمعنى التراجم، كما نرى فى كتاب "إخبار العلماء بأخبار الحكماء" لابن القفطى ومعجم ابن خلكان وغيرهما. وأطلق أيضا على مصنفات تختلف عن المصنفات التاريخية اختلافا كبيرا، مثل "تاريخ الهند" للبيرونى، إذ هو أقرب إلى مصنفات البحوث العقلية منه إلى المصنفات التاريخية. ويعنى إلى جانب هذه المعانى، المعنى اللغوى الأول، أعنى تحديد بداية الأخبار الخاصة بعصر من العصور، أو حساب الأزمان وحصرها، أو تحديد زمن وقوع الحوادث تحديدا دقيقا.

الفصل الأول

ظهور الكتابة التاريخية

العصر الجاهلى

تكلمنا – قبل – عن العصر الجاهلى، وما عرف فيه من كتابة. ولكننا إذا أجهدنا أنفسنا باحثين عن أى نوع من الكتابة التاريخية، لم نكد نظفر بشىء، حتى البلدان المتحضرة التى كنا نظن أنها تحرص على تسجيل حياتها ورقيها، مثل اليمن والحيرة وغسان، لم يصل إلينا منها كتب تاريخية أيضا، وكان تاريخها نسيا منسيا لدى العرب، سكانها أو غير سكانها، ولذلك دخلت عليهم الأباطيل والخرافات عندما أرادوا الكتابة عنها بعد ظهور الإسلام، وحلق بهم الخيال فى الأجواء، ما نستطيع أن نركن إلى حقيقة مما يقولون، على الرغم من النقوش الموجودة حتى اليوم على الآثار الباقية فى اليمن وشمال بلاد الحجاز وجنوبى الشام، مما يدل على جهل المؤرخين العرب بالخط الحميرى والخطوط الأخرى فى بلاد العرب القديمة. والشىء الوحيد الذى نسمع عنه هو المدونات التاريخية المودعة فى أديار الحيرة وكنائسها والتى اطلع عليها الكلبى فيما بعد، وإن كنا لا نعرف عنها شيئا فيما عدا ذلك[1].

ولا يمكننا الركون كثيرا إلى الوثائق التى تروى فى كتب التاريخ الإسلامى عن هذا العصر، وإنما نقابلها بالشك الشديد الذى تثيره فينا ظروف هذه الوثائق ومثالها الواضح تلك الوثيقة التى يذكرها أبو حنيفة الدينورى فى تاريخه أن عمر

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٣٧ .

ابن إبراهيم من ولد أبرهة بن الصباح آخر ملوك اليمن أرسلها إلى الكرنى حسب طلب الأخير[1]. وكانت هذه الوثيقة عبارة عن حلف عقد بين ربيعة واليمن أيام تبع ابن ملكيكرب. وعبارة الوثيقة مسجوعة، وفيها عدة إشارات إلى ضروب النسك الوثنى، وإن كانت تبدأ بعبارة إسلامية تقول: "بسم ا لله العلى الأعظم، الماجد المنعم"، وتنتهى بذكر ا لله وشهادته على الحلف كما كان يفعل المسلمون، إذ تقول: "وشهد ا لله الأجل، الذى ما شاء فعل" . ولا شك أن المرء حين يقع نظره على الرسالة يغمره الشك فيها من جميع الأنحاء .

الأيام

ولكن العرب – على الرغم من كل ذلك – عرفت نوعا من التاريخ الشفهى، فقد كانت القبائل تروى أيامها: حروبها وانتصاراتها، لتفخر بها على القبائل الأخرى، سواء كان ذلك شعرا خالصا أو نثرا تتخلله الأشعار. ولم تكن الصلة واحدة دواما بين الشعر والنثر فى الأخبار، فأحيانا يكون النثر شرحا للقصيدة، وأحيانا يكون الشعر مرتجلا على لسان أحد أبطال الخبر دون أن تربطه صلة بالخبر المنثور. وكان الشعر فى كلتا الحالتين هو الذى يحافظ على تناقل الخبر وانتشاره فلما نسيت هذه الاشعار نسيت الروايات القديمة، وابتكرت أشعار جديدة للتنويه بمآثر القبيلة. وعلى الرغم من كل ذلك فإننا نستطيع أن نطمئن إليها بعض الاطمئنان إذ لابد أنها تقوم على أساس واقعى، وإن اصطبغت بالتحيز والمغالاة .

الأنساب

وكانت كل قبيلة تحفظ نسبها، وتحفظه أبناءها، لتظل نقية بعيدة عن الشوائب

---

(١) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى: الأخبار الطوال ٣٥٢ .

ولتستطيع أن تفخر به على القبائل الأخرى وسيكون لهذا الفرع من التاريخ مكانته بعد الإسلام .

وهكذا وجدت هذه القصص التاريخية المصبوغة بالخرافات والأساطير لدى القبائل، وكانت كل قبيلة تعنى بما تعتبره تاريخها، وترويه لأجيالها القادمة. ولكن عرب الشمال لم يصلوا بعد إلى تاريخ عام لهم، يشمل كل قبائلهم، إذ لم يكونوا قد أدركوا معنى الوطن، ولم تكن وحَّدتهم الظروف فى أمة واحدة .

تاريخ الأمم المجاورة

وعرف العرب تاريخ من جاورهم من الأمم، مثل الفرس والرومان، حتى ليقال إن النضر بن الحارث كان ينافس الرسول، ويُدل عليه بمعارفه عن الفرس. ولكن ذلك التاريخ كان قصصا وخرافات، لا تختلف عما عند عرب الجنوب والشمال فى أغلب الظن .

ظهور الإسلام

لما جاء الإسلام انتشرت فى المملكة الإسلامية فى هذا العهد حركة تاريخية أخذت تتسع وتنتظم شيئا فشيئا، حتى خلفت لنا ثروة أدبية من أغنى ثروات الأدب العربى، وكانت أهم العوامل التى بعثت تلك الحركة هى:

(١) احتاج المسلمون فى تفسير الآيات القرآنية إلى معرفة مناسباتها، أعنى سبب نزولها، والموضع الذى نزلت فيه، والحادثة التى تشير إليها، وما إلى ذلك مما يسمى ما حول النص. ومن الواضح أن معرفة هذه الأشياء تحتاج إلى بحث تاريخى فى حوادث الإسلام، وهكذا كان التفسير من العوامل التى دعت إلى الكتابة التاريخية.

وقد أكثر القرآن أيضا من الإشارات إلى الأمم والقبائل والأنبياء فى قصصه

عن الغابرين، فرغب علماء المسلمين فى فهم هذه الإشارات وتوضيحها. وكان الإسلام قد أظل كثيرا من اليهود والنصارى، فلجأ اليهم المسلمون ليعرفوهم بتلك الإشارات، فأخذ هؤلاء يحدثونهم بقصص التوراة والإنجيل وشروحهما، فربطها المسلمون بالتفسير والتاريخ، واشتهرت هذه الأخبار فى العلمين باسم "الإسرائيليات" . ويتمثل لنا ذلك فى كعب الأحبار (المتوفى عام ٣٤هـ) ووهب بن منبه (المتوفى عام ١١٠هـ) ولا تزال آثارهما فى كتب التاريخ والتفسير التى وصلت إلينا .

(٢) كان الحديث أيضا من عوامل ظهور الكتابة التاريخية، إذ عنى المسلمون بجمع الأحاديث ليفسروا بها القرآن، ويستنبطوا منها أحكام الدين. وكان من هذه الأحاديث جملة وافرة تتعلق بحياة النبى والصحابة، فجُمعت فيما جمع، وكانت أساس كتب السيرة والمغازى فيما بعد .

(٣) شعر بعض الخلفاء أنهم محتاجون إلى نبراس يهتدون بهديه فى سلوكهم إذ لم يكن لهم تراث عربى يقتدون به، كما أنهم رأوا ممالك أجنبية بهرتهم حضارتها، فأحبوا أن يعرفوا كيفية سياستها ونظامها. فقد كثرت المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، حتى هدمت نظام الخلافة، وأقامت نظام الملك. وواجه العقل العربى الذى كان ساذجا فى جاهليته، مشكلات حقيقة، منها ما يمس الدين والحضارة، ومنها ما يمس الحياة المادية والاجتماعية، فرأى ألا بد من الاستعانة بأخبار من سبقه من العقول ليستنير بها. روى المسعودى[1] عن معاوية أنه كان بعد أن يفرغ من عمله "يستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها، والعجم

---

(١) المسعودى: مروج الذهب ٢ : ٥١ .

وملوكها، وسياستها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السابقة. ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها، والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وُكلوا بحفظها وقراءتها فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات" .

(٤) كان الأجانب الذين أظلهم الإسلام يفخرون على العرب بتاريخهم وحضارتهم، ويرون لهم أفعالهم المجيدة فى ماضيهم فاضطر العرب إلى ابتكار تاريخ لهم يستطيعون به الوقوف بإزاء هذا الفخر الأجنبى، ويظهرون لأبنائهم الأخرى مجدا ومكانة. وكان هذا من دواعى ظهور الكتابة التاريخية فى الأمة اليونانية أيضا .

(٥) كان نظام الحكومة الإسلامية، وخاصة النظام المالى، من العوامل التى أدت إلى قيام الحركة التاريخية وانتشارها، لأن الضرائب على البلدان المختلفة تتباين حسب فتحها صلحا، أو عنوة، أو بعهد، وكانت المعاملة السياسية والاجتماعية نفسها تختلف فى بعض البلدان تبعا لما حدث فى أثناء فتحها، فدعا كل ذلك، والنظام المالى خاصة، إلى بحث تاريخ الفتوح، والاهتمام بهذا الفرع من التاريخ .

ودعا النظام المالى إلى نشوء فرع آخر من التاريخ، وذلك لأن نظام العطاء تغير منذ عهد عمر، فصار بحسب الأسبقية إلى الإسلام، أى أن الذين أسلموا فى أول الدعوة يأخذون من العطاء أكثر مما يأخذ من أسلم بعدهم، ومن أسلم وهاجر يأخذ أكثر من المسلم بعد الهجرة، ومن أسلم وشهد بدرا يأخذ أكثر ممن لم يشهدها من الذين أسلموا بعدها، وهلم جرا. وكان هذا النظام سببا فى البحث الدقيق فى الدعوة الإسلامية وانتشارها. كما كان العطاء مرتبا أيضا حسب الأنساب، أى يبدأ بقرابة النبى صلى الله عليه وسلم الأقرب، ثم قرابة أبى بكر، ثم عمر .. وهكذا فى الأنصار، وفى جميع المسلمين. ومن الواضح أن هذا النظام يدعو إلى البحث فى

الأنساب، وظهور هذا النوع من التاريخ، وظهور كتب الطبقات أيضا .

(٦) ابتداء حركة التأليف فى العلوم الأخرى المعروفة بين العرب فى ذلك الوقت، حتى إننا نجد صحارا العبدى يؤلف كتابا فى الأمثال. ثم يتطور الأمر بمرور الزمن فتترجم بعض كتب الكيمياء فى عهد خالد بن يزيد بن معاوية، ويأمر عمر بن عبد العزيز بجميع الحديث، وترجمة كتاب فى الطب، ويقول بعض الرواة إن عروة بن الزبير أحرق بعض كتب ألفها فى الفقه فى يوم الحرة[1]. كل هذه الحركة التأليفية تدل على أن العقل العربى كان يعانى تحولا خطيرا، وأنه آخذ فى التمدن السريع، والمشاركة فى التدوين والتأليف .

(٧) وآخر الأمر لا ننسى استمرار ما كان فى الجاهلية من عناية بالأنساب والأيام، ازدادت فى العهد الإسلامى، لأنها تغذى الشعراء فى ميدان الفخر والهجاء والنقائض التى شاعت فى هذا العصر، وكان لها المقام الأول فى شعر الفحول واتخذ هذا النوع من التاريخ لونا جديدا أيضا، هو العناية بغزوات الرسول. فما كان ذلك النوع من التاريخ إلا استمرارا لما عهد عند الجاهليين، إلا أن الإسلاميين قيدوا، والجاهليين حفظوا ورووا .

---

(١) ابن سعد: الطبقات ٥ : ١٣٣ .

الباب الثالث

الفصل الثانى

المؤرخون وكتبهم

الكتاب الأول

اجتمعت العوامل السابقة فأشعلت الروح التاريخى فى المسلمين، فأخذوا ينظرون فى هذا الفن، باحثين منقبين، وشرعوا يروون الأخبار التى يستطيعون الوصول إليها. ولكننا لا نلبث أن نرى هذه الأخبار الشفوية تدوَّن فى عهد معاوية، فى رسائل صغيرة تسمى كتبا. وكان هذا تحولا خطيرا، يبشر بما سيتلوه من تقدم ورقى فى الدراسة التاريخية. ولا ندرى بالتحقيق ما أول كتاب ظهر فى التاريخ عند العرب. ولكن يتنازع الأسبقية زياد ابن أبيه (المتوفى عام ٥٣هـ) ودغفل النسابة البكرى (المتوفى عام ٦٠هـ) وعبد الله بن عباس (المتوفى عام ٦٨هـ) وعبيد ابن شرية الجرهمى (المتوفى عام ٧٠هـ تقريبا).

زياد ابن أبيه

أما زياد ابن أبيه فقد ألف كتابا فى مثالب العرب[1]. ولا يدهشنا ذلك كثيرا، إذ نعرف قصة نسب زياد، واستلحاق معاوية إياه، وكراهية المسلمين لذلك، بل

---

(١) ابن النديم: الفهرست ٨٩ .

سخرية بعض الشعراء من هذا الاستلحاق. ولذلك أراد أن يزود نفسه وأبناءه بسلاح يخيف به المتعرضين له، ويشعرهم بعدم نقصه، بل بنقص الآخرين فى هذه الناحية. ولذلك أرجح أنه كتاب فى الأنساب خاصة، وأنه ألفه بعد استلحاق معاوية إياه، وتعيير الناس له. ويؤسفنا أن هذا الكتاب فقد، ولم يبق لنا منه شىء، وإن كنا نرجح أن كتب الأنساب والشعوبيين المتأخرين أخذت عنه .

دغفل النسابة

أما كتاب دغفل النسابة فمجالس وأسمار، فى بلاط الخليفة معاوية بن أبى سفيان الذى كان محبا للمسامرة وأحاديث من مضى. ويسمى هذا الكتاب "التظافر والتناصر" . ويروى كتاب "التحفة البهية والطرفة الشهية"[1] المجلس الثامن عشر منه، فيقول: "ذكر فى كتاب التظافر والتناصر، وهو مجالس دغفل النسابة البكرى عند معاوية، وأنه سأله فى الثامن عشر من مجالسه، فقال: "من أبلغ العرب فى ثنائه؟" فقال دغفل: "ذاك النابغة الذبيانى حين دخل على الحارث بن أبى شمر الغسانى، يطلب إليه فى أسارى قومه، فقال: "ألا أنعم صباحا أيها الملك المبارك، السماء غطاؤك، والأرض وطاؤك، وولدى فداؤك، والعرب وقاؤك، والعجم حماؤك، والحكماء وزراؤك، والعلماء جلساؤك، والمقاول إخوانك، والعقل شعارك، والحلم دثارك، والسكينة مهادك، والوقار غشاؤك، والبر وسادك، والصدق رداؤك، واليمن حذاؤك، والسخاء ظهارتك، والحياء بطانتك، والعلاء غايتك، وأكرم الأحياء أحياؤك، وأشرف الأجداد أجدادك، وخير الآباء آباؤك، وأفضل الأعمام أعمامك، وأسرى الأخوال أخوالك، وأعف النساء حلائلك .. " .

---

(١) ص٣٨ .

ونحن إذا صدقنا هذا القول ولم نذهب مع ابن النديم الذى ينص على أنه لم يصنف شيئا[1]، لا نستطيع أن نأخذ هذا المجلس حقيقة لا شك فيها. فإننا نرى الكلام ملازما للسجع، وفيه أشياء منافية لذلك العصر، ولم نعتد العثور عليها فيه. كما نرى فيه نزعة إسلامية تسير مع قول القائلين بالتبشير بمحمد قبل ظهوره. ونحن إذا لم نشك فى هذا التكهن، فإننا نشك فى تكهن النابغة بإسلام الحارث. وإنه لم يسلم فعلا، وما أظن أنه كان يعد الإسلام فخرا له، فى عصره ذلك. ولكن هذا المجلس على كل حال، يبين لنا أن كتاب "التظافر والتناصر، إن كان وجد على الإطلاق، كان يعالج التاريخ الأدبى، ويبين مقدار عنايتهم بالسمر، وأثر هذا السمر فى تجويد العبارة وتحسينها .

ابن عباس

أما ابن عباس فقد نسب إليه بعض الرواة[2] مدونات استقى منها من بعده من المؤرخين. ولا يذكرون أن ابن عباس جعل من هذه المدونات كتابا خاصا أعطاه اسما معينا. وهى فى غالب الظن بعض مجالسه التى كان يفسر فيها القرآن، ويتعرض لمختلف المعارف العربية، دونها أحد تلاميذه أو أبنائه. ونحن لا نستطيع أن نتكلم عنها أكثر من ذلك، لأن ابن عباس من الذين حمل عليهم كثير من الأخبار فى كل فن .

عبيد بن شرية

أنتجت لنا مجالس معاوية الكتاب الرابع أيضا، إذ أشار عمرو بن العاص على معاوية باستدعاء عبيد، وسؤاله عن الأخبار المتقدمة، لما رآه فيه من حب المسامرة

---

(١) ابن النديم: الفهرست ٨٩ .

(٢) ابن سعد: الطبقات ٥ : ٢١٦.

والأخبار السالفة فأحضره واتخذه سميرا له، وأمر كتابه بتدوين أحاديثه ونسبتها إليه. فدونت تحت عنوان "كتاب الملوك وأخبار الماضين". كما يقول صاحب الفهرست[1] وقد طبع الجزء الذى وجد من الكتاب فى حيدر آباد باسم "أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها" ولا يزعجنا هذا الاختلاف كثيرا، لأن عبيدا نفسه لم يدونه، ولا عنونه كتاب معاوية، بل نسبوه إليه دون عنونة، كما يبدو. ومن ثم اختلف النساخ المختلفون فى عنوانه. ولا يبعد أن يكون لهذا الاختلاف أسباب أخرى غابت عنا. ويؤكد لنا العنوان نفسه أنه من وضع أناس غير عبيد، إذ تقول النسخة المطبوعة: "أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها على الوفاء والكمال، والحمد لله على كل حال". فتصريحه باسم عبيد، وقوله "على الوفاء والكمال"، يشعران بأن هذه العبارة كلها من كتابة شخص آخر غير المؤلف .

وحين نقلب صفحة العنوان نرى الكتاب يبدأ بالبسملة والحمد، ثم سند روايته: "حدثنا عبيد بن شرية الجرهمى، عن البرقى يرفع الحديث أن معاوية .. " وإذن فالكتاب من رواية البرقى، وهو تلميذ لابن هشام. وإذن فالمستر كرنكو J, Krenkow له دعامته التى يتكئ عليها، حين يستنتج من ذلك أن جامع الكتاب هو ابن هشام، وأن القائل "عن البرقى" أحد تلامذته. ولسنا نستبعد ذلك، ولكن نحب أن نتصفح الكتاب قبل الإدلاء برأينا .

يقدم الكاتب بين يدى الكتاب مقدمة، يشرح فيها ولاية معاوية وخلافته وحبه للسمر، وإشارة عمرو باستدعاء عبيد، وكبر سنه، وعلمه، وسمره، وسيطرته على قلب معاوية، وأمر الأخير بتدوين أقواله .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ٨٩ .

ويتناول عبيد فى هذا الكتاب تاريخ موطنه اليمن، بادئا باجتماع البشر فى بابل، ثم تفرقهم شيعا، وخروج بعض بنى سام إلى اليمن. ثم يأخذ فى سرد تاريخ هؤلاء اليمنيين، معتنيا بمن أرسل إليهم من أنبياء، وإن كان همه كله موجها للملوكهم وغزواتهم فى بطون الأرض .

وينتهى الجزء الذى وصل إلينا بمقتل طسم وما قيل فيها من شعر. ويصرح الناسخ بأن الكتاب قد تم، ولكنه يعنى أنه كتب النسخة التى أمامه كلها فحسب، إذ الكتاب لم يتم، ولم تكمل أحبار عبيد، ولم تكمل أخبار طسم نفسها. ولعل مما يؤيدنا فى ذلك، أننا كنا ننتظر من كتبة معاوية إشارة إلى ما حدث لعبيد فى نهاية مجالس سمره .

وأول ما يلاحظ على الكتاب أنه ليس كتابا تاريخيا بالمعنى المصطلح عليه، وإنما هو مجالس سمر تاريخية مدونة. ولذلك يغلب عليه مايغلب على تلك المجالس من خصائص. فنرى الأسلوب الحوارى يشيع فيه[1]:

"قال معاوية: وما كان اللسان يومئذ؟

قال عبيد: سريانى أوله وآخره، وهو لسان أبينا آدم عليه السلام ونوح وإدريس.

قال معاوية: كيف اختصت أرض بابل باجتماع الناس فيها ؟

قال عبيد: هى سرة الأرض فى فضلها، وأراد الله ذلك بها .

ولكن الأمر الجميل الذى نحسبه لمعاوية أو لكاتبه، أنه كان لا يتدخل بالأسئلة فى بعض الفصول، ولذلك نراها تجرى دون أية مقاطعة، أو بمقاطعة لا تكاد تذكر.

---

(١) ص٣١٦ .

ومما يتصل بهذا ويحسب للكاتب، أنه لم يفصل بين المجالس المختلفة، فاكتسب الكتاب ميزة حسنة، وهى الاتساق وعدم التقطع، كما نرى فى مجالس قصص ألف ليلة وليلة مثلا. ولكننا خسرنا ميزة أخرى، هى عدم معرفتنا القدر الذى كان يقصه عبيد على معاوية، والمدة التى قضاها الاثنان فى سمرهما. ومما يتصل بهذا أيضا، أننا لا نرى أحدا من جلساء معاوية يظهر فى الكتاب، سائلا أو مجيبا إلا مرتين فى صدر الكتاب[1].

ونحن نذكر – ولا شك – تلك المجالس الأدبية التى كانت تعقد فى بلاد الأمويين، وخاصة بلاط معاوية وعبد الملك، وكانت من الأسباب التى طورت الأدب والنقد الأدبى. ونذكر أيضا عناية هذه المجالس بالشعر، إذا كنا نذكر ذلك، فإننا لن ندهش حين نرى عبيدا يُعنى عناية شديدة بالشعر. ونرى معاوية – على الرغم من هذه العناية الشديدة – يلتمس منه الأشعار، فيقول[2]: "وسألتك ألا تمر بشعر تحفظه فيما قاله أحد إلا ذكرته"، ويقول[3]: "فحدثنى عن لقمان بن عاد صاحب النسور .. وما قيل فى ذلك من الشعر"، ويقول بعد أن يسرد عبيد بعض الأخبار[4]: "فهل قيل فى ذلك شعر؟" وكان معاوية يطلب منه الشعر للمسامرة، ولسبب آخر غيرها، إذ كان يعتبر الشعر الدليل على صدق الخبر، يقول[5]: "وأبيك، لقد أتيت وذكرت عجبا من حديثك عن عاد، وقد علمت أن الشعر ديوان العرب، والدليل على أحاديثها وأفعالها، والحاكم بينهم فى الجاهلية وقد

---

(١) ٣١٣ ، ٣١٤ .

(٢) ٣١٤ .

(٣) ٣٥٦ .

(٤) ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٢٣ ، وغيرها .

(٥) ٣٥٢ .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم آله وسلم يقول: "إن من الشعر لحكما". ويقول[1]: "سألتك ألا شددت حديثك ببعض ما قالوا من الشعر، ولو ثلاثة أبيات". وكثيرا ما كان يقول لعبيد بعد أن يذكر ما طلب من الشعر[2]: "لقد جئت بالبرهان في حديثك".

والشعر الذى جاء به عبيد يمكن تقسيمه إلى أقسام ثلاثة: قسم ضعيف سخيف ركيك، ليس من الشعر الحق فى شيء، وهو موضوع على من نسب إليهم، وهو الغالب على الكتاب. ومن أمثلته ما ينسب لطسم بن لاوذ بن إرم، حين انتقل من بابل إلى بلاد العرب[3]:

إنى أنا طسم شبيه سام ... ووالدى لاوذ بن رام
لما رأيت من بنى أعمامى ... وإخوتى الرحيل باعتزام
قد اقتدوا بيعرب الهمام ... كرهت بعد إخوتى مقامى

وقسم آخر أجود من السابق، ولكنه من الموضوعات أيضا، ومن أمثلته ما ينسب لتبع[4]:

سيذكر قومى بعد موتى وقائعى ... وما فعلت قومى بقيس أفاعلا
فكم من ملوك قد قتلنا رجالهم ... وكم من نساء قد تركنا ثواكلا
وكم من أسير ظل فى القيد ساقه ... يبيت يراعى غله والسلاسلا
سيذكر قومى نجدتى ومكارمى ... وَيدخل باب العز من كان جاهلا
بنيت لهم مجدا مع النجم سمكه ... وصيرته للعالمين معاقلا

---

(١) ٣١٨ .
(٢) ٣٣٠ ، ٣٤٩ ، ٤٠٠ ، وغيرها .
(٣) ٣١٩ .
(٤) ٤٤٠ .

أما القسم الثالث فأشعار تنسب إلى شعراء معروفين، مثل العباس بن مرداس، وأعشى بنى وائل، وحسان بن ثابت، وأمية بن أبى الصلت، وامرئ القيس، وعبيد ابن الأبرص. والنابغة الذبيانى[1]. وقد وجدت هذه الأشعار فى دواوين أصحابها، وإن كانت قد تختلف فى بعض الألفاظ أو العبارات .

وهناك ظاهرة جديرة بالتسجيل فى عداد عبيد، إذ نراه يعنى فى بعض الأحيان بإيراد جملة من الأشعار بعد سرده الأخبار التى يعالجها، كما فعل بعد تناوله أخبار عاد وثمود. وكان عبيد يشعر بأن هذا هو المنهج الأكمل. قال له معاوية ذات مرة[2]. "أقيل فى ذلك شعر؟" فى أثناء كلامه، فقال: "نعم يا معاوية، قد قالت العرب فى ذلك شعر، فإن أحببت أنشدتكها، وإن شئت فى آخر الحديث، فإنه أصلح لحديثك" فقال معاوية: "أسمعنيها فى آخر الحديث فهو أحسن" .

ومن أجل السمر أيضا عنى عبيد ببعض القطع النثرية وجودها وهذبها، حتى لتلفت النظر من بين باقى الأخبار. وصارت شبيهة بما يسمى فى الأدب الغربى "القطع الأرجوانية"، يعنون بذلك الفقرات التى تلقى العناية التامة، على حين يهمل ما حولها من كلام. وتظهر هذه الفقرات أوضح ظهورها فى بعض الأحاديث، التى ينسبها عبيد لأبطال تاريخه، وفى بعض أوصافه للأجناس. فها هى ذى جارية من عاد تقول حين رأت ريح العقوبة[3]: "الويل لعاد، التى طغت فى البلاد، فأكثروا فيها الفساد. أرى رياحا كأمثال الجبال، لها لجم بأيدى رجال، كأن فى وجوهم شهب النار" . وهذا رجل وامرأته يتخاصمان أمام عمليق فى ابنهما، فتقول[4]: "إنى امرأة

---

(١) ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٧ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٤٠٥ .
(٢) ٣٣٥ .
(٣) ٣٣٧ .
(٤) ٤٨٣ .

حملته تسعا، وأرضعته سبعا، ولم أر منه نفعا، حتى إذا تمت أوصاله، واستوى وصاله، أراد أن يأخذه كرها، ويتركني ورها". فيقول زوجها: "أخذت المهر كاملا، ولم أصب منها طائلا، إلا وليدا جاهلا، فافعل ما كنت فاعلا" .

والكاتب في هذه الفقرات لا يعرف من التجويد والزخرف غير السجع، بل إنه لسجع ضعيف غير جميل في الغالب. ولا أدري أذلك من التحريف الذي أصاب الكتاب أم من الكاتب نفسه. أما الأسلوب الغالب على الكتاب فبسيط عادي صريح، عاطل عن كل الحلي .

وظهرت في الكتاب خاصة أخرى تظهر في المسامرات، تلك هي الاستطراد. فكثيرا ما يذكر عبيد عرضا في أثناء حديثه بعض الأشياء أو الأشخاص، فيسأله معاوية عنهم، فيضطر إلى الخروج إليهم، ثم يرجع إلى السياق الأصلي. وكان معاوية يشير عليه أحيانا بالرجوع إلى السياق قائلا: خذ في حديثك"[1] أو "خذ في حديثك الأول"[2] أو "دع هذا وخذ في حديثك الأول"[3]. وكان معاوية يستعجل أحيانا بعض الحوادث، فيشير عليه عبيد بالتمهل[4] .

وكانت مجالس معاوية هذه استمرارا لمجالس السمر الجاهلية، ولذلك نرى موضوعات عبيد تغلب عليها الصبغة التي كانت تغلب على تلك المجالس. فغلب على أخباره الخيال البدائي المبالغ، بل المغرق في المبالغة، وخرجت أخباره قصصا وخرافات وأساطير، عن ملوك اليمن، لا تختلف في شيء عما كان في الجاهلية، في

---

(١) ٣٣٧ ، ٣٦٥ ، ٤٠٠ ، وغيرها .

(٢) ٤٠٨ .

(٣) ٤٥١ .

(٤) ٤١٣ .

غالب الظن. بل يمكننا أن نعتبر كتابه تدوينا للقصص التاريخية التى كانت شائعة فى الجاهلية، وخاصة فى جنوب بلاد العرب. وهى قصص تاريخية، لا أخبار تاريخية، فلا نستطيع أن نخرج منها بأخبار تاريخية علمية، وإنما نظفر بأدب شعبى خيالى. ومما يكمل صورتها، ويقرب بينها وبين الجاهلية، تلك الأنساب التى تشيع فيها، حتى قلما يظهر شخص، دون أن تورد سلسلة نسبه، حقا كانت أو باطلة. وإذن نحن لا نبعد كثيرا عن الصواب، إذا عددنا كتاب عبيد مدونة تحوى الأخبار التاريخية، معالجة كما كان يعالجها الجاهليون، ولا يختلف عنهم إلا فى اعتمادها على القرآن فى قصص الأنبياء والشعوب التى تعرض لها القرآن. ولعل عبيدا كان يضيق بالأخبار التى تناولها القرآن، لأنه لا يستطيع أن يتصرف فيها، أو يترك لخياله الحرية فى تناولها، أو يرويها كما وصلته عن الجاهلية، حتى ليقول لمعاوية حين سأله عن بلقيس والهدهد[1]: "قول الله أصدق، وقد أعلمتك لست بمحدث بشىء ليس فى القرآن، ولست بواصف خبرا بلغنى بعد ما قال الله تبارك وتعالى" واعتمد عبيد فى القصص القرآنية على ابن عباس كثيرا، فكان يقول لمعاوية: "سمعت ابن عمك"[2]، قاصدا عبد الله، وكان يصرح باسمه أحيانا[3].

وكتاب عبيد ذو أهمية كبيرة، لا فى تطور حركة التأليف التاريخى فحسب، وإنما لأنه يكشف لنا النقاب عن الثقافات التى كان يعرفها العرب فى الصدر الأول من الإسلام، وربما التى كان يعرفها العرب فى الجاهلية، وخاصة فى اليمن، وأوضح ما تجده الثقافة الإسرائيلية التى تظهر بارزة فى الكتاب كله. يظهر هذا فى الأخبار

---

(١) ٤٢٤ .

(٢) ٣٢٧ .

(٣) ٣٢٦ ، ٣٣٦ ، ٣٦٥ ، ٤١٥ ، وغيرها .

والأشخاص والأنساب والأسماء وغيرها، بل نراه أحيانا يذكر اسم أحد الأشخاص ثم يورد اسمه فى العبرية، فأبو إبراهيم آزر واسمه تارخ[1]، وعابر هو هود[2] .

هذا هو كتاب "أخبار عبيد بن شرية"؟، ملحمة من أجل الملاحم العربية النثرية التى تتناول تاريخ العرب الجنوبيين، يلعب فيها الخيال دورا كبيرا، ويحليها الشعر والقطع النثرية الأرجوانية، والقصص الإسرائيلية المأخوذة من التوراة وأخبار الإسرائيليين، ملحمة تشبه الملاحم التى ستظهر فى العصور الإسلامية المتأخرة، من أمثال ملاحم عنترة والظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة، ولكنها تمتاز عنها بسمو أسلوبها، وفصاحته العربية. ولعلنا لا نشتط كثيرا حين نقارنها بشاهنامة الفردوسى الشعرية، التى تتناول تاريخ الفرس منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامى. ويؤسفنا كل الأسف ضياع الجزء الأخير منها .

وفى ختام الكلام عن أخبار عبيد نذكر أمرا كبير الأهمية، ذلك هو دخول بعض العناصر العربية فيه. فهذا خبر يصدر بالإسناد التالى[3]: وذكر بعض أصحاب السير عن عبيد بن شرية بأمر هود (؟)، قال أخبرنى البحترى عن محمد بن إسحاق عن محمد بن عبد الله بن أبى سعيد الخزاعى عن أبى الطفيل عامر بْن وائلة الكنانى عن على بن أبى طالب صلوات الله عليه .. " وليس هذا بإسناد الكتاب، والخبر ليس منه، حتى ليقال بعد "رجع الحديث إلى عبيد بن شرية ومعاوية" ويعلق الناشر على هذا الخبر قائلا: "لعل هذه العبارة كانت حاشية، فأدمجها بعض النساخ فى الأصل، ومع ذلك فهذا عبيد بن شرية ليس له دخل فى هذه القصة" ولكنه ليس

---

(١) ٣١٥ .

(٢) ٣١٣ ، ٣١٥ .

(٣) ٣٥٠ .

خبرا واحدا. وإنما هى أخبار كثيرة من رواية محمد بن إسحاق وغيره، مثل وهب بن منبه[1]. ونحن لا نرى أن هذه الأخبار حواش، وأدخلها النساخ فى الكتاب، فإننا لا نستطيع أن نقول ذلك عن الخبر الآتى[2]: "ذكر عبيد أن شمر يرعش بنى نصبا فى السغد وكتب عليه "من بلغ هذا المكان فهو مثلى، ومن جاوزه فهو أفضل منى"، ثم قال عبيد: "وأنا أرجو أن يظهر ا لله أمير المؤمنين بذلك الموضع من الأرض، فيعلم أنى قد أديت إليه من حديثى علما" قال معاوية: "اللهم أرنا تصديق قول ابن شرية، فإنه يذكر عجبا، وإن شاء ربى فعل ذلك" فبلغنى عن الشعبى أنه ذكر عن رجل من خيوان همدان يقال له عبد ا لله، قال: "بينما نحن بالسغد مع قتيبة بن مسلم الباهلى، وافتتح سمرقند، إذ نظر إلى حجر ملصق على الباب فيه خطوط كأنها بالعربية وليست بها .. فقرأه على مثل ما ذكره عبيد لمعاوية، ورواه عنه من رواه". فهذا الخبر ليس من رواية عبيد، ولا ندرى منه من الذى يرويه عن الشعبى ولكننا نجد الخبر نفسه فى كتاب التيجان لوهب بن منبه مرويا عن ابن هشام[3]: "قال أبو محمد (بن هشام) حدثنى عامر بن جرهم الأنصارى، عن مكحول، عن الشعبى، قال: "حدثنى رجل من خيوان همدان .. الخ" إذن فهذا الخبر ليس من رواية عبيد، بل حدث بعد موته، وهو من صلب الكتاب، ولا يظهر عليه أنه مقحم فى هذا الموضوع. وكذلك نرى بعض الأسماء والأنساب والأشعار تختلف رواياتها باختلاف المواضع، حتى أكثر الناشر من الإشارة إلى ذلك[4]، مما يجعلنا نظن أن هذه الاختلافات ترجع إل رواة مختلفين، لا عبيد وحده .

---

(١) ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ .
(٢) ٤٢٩ .
(٣) وهب بن منبه: التيجان ٢٣٧ .
(٤) ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، وغيرها .

وهناك أخبار أخرى منسوبة لعبيد، ولكننا لا نستطيع أن نصدق أنه يتفوه بها أمام معاوية. يقول[1]: "وبلغني أن أولاد بربر بن كنعان بن كوش بن حام الذين يزحفون لرجل من ولد فاطمة حتى يردوه إلى مكة، وهو صاحب العدل في آخر الزمان، وأصحابه يقال لهم: الغرباء" . قال له معاوية: "قلت الصواب إن شاء الله، وإن كلامك طيب وشفاء لما في الصدور". ولا شك أن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن عبيد أمام معاوية. أما تعليق معاوية على كلامه فلا يحتاج إلى إنكار من أحد، فإنه أوهى مما يحتاج إلى الإنكار .

وينسب إلى عبيد أيضا أنه قال[2]: "وقد ذكرناها في كتابنا هذا". وهذه العبارة كبيرة الأهمية، لأنها تدل على أن القائل كان يتصور هذه الأخبار كتابا لا مجالس سمر، مما قد نستنتج منه أن الكتاب لم يكن مجالس حقيقة، وإنما مؤلف على نهج المجالس. لو أضفنا كل هذا إلى ما لاحظناه على العنوان والمقدمة، لخرجنا بأن الكتاب من جمع ابن هشام، وأنه عمل فيه ما عمل في سيرة ابن اسحاق، أو أنه دخلته عناصر غريبة كثيرة، بعضها مصرح بنسبتها، وبعضها غير مصرح .

ولكن الأستاذ كرنكو يذهب إلى أبعد من ذلك، فيصرح بأن عبيد بن شرية شخص خيالي لا وجود له، وأن الكتاب من تأليف ابن هشام أو البرقي أو محمد بن إسحاق، مكملا به المؤلف ما ينقص كتاب وهب بن منبه من أخبار. ويستدل على ذلك بتلك الأخبار التي سميناها غريبة عن الكتاب، وبغيرها من الأدلة. ومنها عدم ورود ذكر لعبيد في كتب الرجال. ونحن لا نستطيع أن نذهب معه إلى هذا الحد،

---

(١) ٣٢٣ .

(٢) ٣٦٧ .

كما لا نستطيع أن نرفض رأيه يقينا. فعدم ورود اسم عبيد فى كتب المحدثين دليل على أنه لم يرو الحديث، وليس بدليل على عدم وجوده. ولعل هذا الرأى غريب لأنه كان من المنتظر من رجل مثل عبيد، عنى بالتاريخ الجاهلى، أن يعنى كذلك بالتاريخ الإسلامى، فيؤدى ذلك بالمحدثين إلى الكلام عنه، ولو فى باب الضعفاء من المحدثين. كما أننا لو قلبنا صفحات كتاب المعمرين[1] نجد القصة التى يروون أنها جرت بينه وبين معاوية، تروى بأشكال مختلفة، ولكن متقاربة، على أنها حدثت لأفراد آخرين غيره من المعمرين. فهذه الدلائل تغرينا على السير إلى جانب الأستاذ كرنكو. ولكن الأمر اليقينى الذى لا يخامرنا فيه شك، أن الكتاب، بهذه الصورة الراهنة، ليس من تأليف عبيد بن شرية .

وهذه فقرة من الكتاب تبين لنا أسلوب عبيد، قال:[2]

"قال معاوية: فمن ملك بعده (بعد ذى القرنين) ؟

قال: "ملك بعده ملكى كرب بن أسعد بن تبع الأكبر بعد أبيه. وكان رجلا ضعيفا، لم يكن يغزو أحدا حتى مات ولم يبعث جيشا. فأما أهل اليمن فيزعمون أنه كان يتحرج من الدماء. وأما أهل الرأى والمعرفة والبصر بالأمور، فإنهم يقولون لم يكن ذلك منه إلا عن قلة التجربة وقلة الأنفة وصغر الهمة، لأنه لم يحدث دعوة فى ملكه، ولم يعبر عن دين ولا طريقة أحد ممن قبله .

قال معاوية : "وما تعبير حال الملك؟"

قال عبيد: "يا أمير المؤمنين. لم يكن يغير من شىء يفعله آباؤه، ولا أزال شيئا

---

(١) أبو حاتم السجستانى: كتاب المعمرين ٧ ، ٦٧ ، ٨٣ ، ٨٧ .

(٢) ٤٣٩ .

من جبروت الملك، ولا أحدث تواضعا ولا قربا من الناس، ولا زال عن تجبره وعتوه، وأشد أمره باليمن لا يجاوز أرض اليمن إلى غيرها، "بلد عرب أو عجم" .

قال معاوية: "فكيف ملكهم يا عبيد، وكيف استقام لهم أمرهم على تلك الحال؟".

قال عبيد: "لأنهم أحبوا الدعة والسكون، وكانوا قد ملوا الغزو والحروب، وكثرة المسير فى البلدان" .

قال معاوية: "فكم ملكهم على هذا الحال؟"

قال: "ملكهم خمسا وثمانين سنة" .

قال معاوية: "فمن ملك بعده؟"

قال عبيد: "ملك ابنه تبع أسعد بن ملكيكرب" .

هذه هى الكتب التى ترجَّح بينها الرأى فى اختيار الأول فى الظهور. ثم ظهرت كتب السير والمغازى التى تتناول حياة الرسول بالدرس. وقد رأينا أن من عوامل ظهور هذه الدراسة جمع الأحاديث، سواء ما تناول الناحية الفقهية، وما تناول الناحية التاريخية من حياته، بدافع من الرغبة الدينية. وكذلك كان العرب ينظرون إلى النبى نظرتهم إلى بطل من الأبطال وحَدهم وهيأهم لفتح الأمم، فعنوا بتاريخه كما عنوا بتاريخ أبطالهم فى الجاهلية. ولا ننسى مع ذلك أنهم أرادوا أن يضعوا الرسول صلى ا لله عليه وسلم بإزاء موسى وعيسى اللذين فخر بهما أهل الكتاب وألفوا عنهما الكتب، وأحاطوهما بالقصص الصحيحة وغير الصحيحة. كل أولئك وغيره اجتمع فأثمر كتب المغازى والسير، التى تعتبر بداية التأليف العلمى فى التاريخ لأنها كانت تستند إلى الأحاديث التى كان يراعى فيها الدقة إلى أبعد غاية، فأسبغت الأحاديث دقتها على التاريخ. ولذلك نشعر للوهلة الأولى بأنا نستند إلى

أساس علمى وثيق، حتى لو سلمنا فى نفس الوقت بشىء من الشك فى الأحاديث التى تناولت العهد المكى خاصة من حياة الرسول. وقد ترك هذا الارتباط بالأحاديث أثرا لا يمحى فى أسلوب التأليف التاريخى، إذ كثرت مواطن التشابه بين النوعين. وكانت المدينة موطن هذه الدراسة، فلم يختص أحد بالتأليف فى المغازى والسير قبل القرن الثانى من الهجرة خارجها .

أبان بن عثمان

أول من اشتهر بالتأليف فى المغازى أبان بن عثمان بن عفان المتوفى عام ١٠٥هـ أو قبله. وكان أبان من علماء الحديث والفقه أيضا. يقول ابن سعد فى أثناء حديثه عن المغيرة بن عبد الرحمن[١]: ".. وكان ثقة قليل الحديث، إلا مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخذها من أبان بن عثمان، فكان كثيرا ما تقرأ عليه ويأمرنا بتعلمها" وكان المغيرة هذا فى جيش مسلمة بن عبد الملك الذى توجه لحرب الروم عام ٩٦هـ، واسترجعه عمر بن عبد العزيز فى عام ٩٩هـ[٢]. ولذلك لا يمكن المغيرة أن يأخذ المغازى إلا عن أبان بن الخليفة عثمان، وليس عن أبان بن عثمان البجلى الشيعى، الذىعاش بعد ذلك التاريخ بجيل أو اثنين[٣] .

ويبدو أن هذه المغازى التى رواها المغيرة عن أبان ليست كتابا بالمعنى الدقيق، وإنما هى مجموعة من المواد المتعلقة بحياة النبى. ويظهر أن هذه الأخبار ضاعت، ولم يأخذ عنها أحد من كتاب السير المتأخرين. فلم يأخذ عنه ابن إسحاق ولا ابن سعد (الجزء المخصص للسيرة من طبقاته). أما خبر أسر العباس وبعض بنى هاشم

---

(١) ابن سعد: الطبقات ٥ : ١٥٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ١٣٠٥ ، ١٣٤٦ .

(٣) هو روفنس: المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف ص١٩ – ٢٦ .

الذى يرويه ابن سعد[1] عن أبان، عن معاية بن عمار، عن جعفر بن محمد (المتوفى عام ١٤٨هـ) فإنه يتضح من الإسناد أنه لا يقصد أباننا هذا، وإنما يقصد أبانا البجلىّ الشيعى .

ولكن ابن سعد يذكر أبان بن الخليفة عثمان خارج السيرة، حين يروى الكلمات الأخيرة التى تفوه بها عمر بن الخطاب عند وفاته، وقد سمعها أبان من والده[2]. ويذكره ابن قتيبة أيضا فى الشعر والشعراء[3]، على أنه راوى الخبر القائل بأن معاوية اشترى البردة، التى أعطاها النبى لكعب بن زهير، مكافأة له عن قصيدته: بانت سعاد .. وأن الحكام كانوا يلبسونها فى الأعياد. وفيما عدا ذلك لا يوجد لأبان ذكر فى كتب التاريخ، وإن كانت كتب الحديث تكثر من ذكره .

عروة بن الزبير

عروة بن الزبير المتوفى عام ٩٤هـ من معاصرى أبان، الذين ألفوا فى التاريخ، ولم يقتصر عروة على الروايات الشفوية، بل دون بعض الأحداث التى طلبها منه عبد الملك بن مروان، أو ابن أبى هنيدة، الذى كان فى بلاط الوليد، فى رسائل بعثها إليهما. وقد وصل إلينا بعض هذه الرسائل فى صفحات ابن إسحاق، والواقدى، والطبرى .

تتناول رسالة عروة الأولى إلى عبد الملك هجرة الحبشة[4] . وتتناول الثانية

---

(١) ابن سعد: الطبقات ٤ : ٢٩ .

(٢) ابن سعد: الطبقات ٣ : ٢٦٢ .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١٠٦ .

(٤) نفس المرجع ١ : ١١٨٠ .

موقعة بدر[1] ، والثالثة تتناول فتح مكة[2] . وتناول عروة أيضا وفاة خديجة، وهجرة النبى والصحابة إلى المدينة، وخبر زواج النبى من أخت الأشعث بن قيس. وقد روى هذه الأخبار عنه ابنه هشام. أما رسالته لابن أبى هنيدة فرواها الزهرى، وتتناول المناسبة التاريخية للآية العاشرة من السورة الستين[3] .

وتمثل كتابات عروة المشار إليها أقدم المدونات التى وصلت إلينا عن بعض الحوادث الخاصة فى حياة النبى، كما تمثل أقدم آثار الكتابة التاريخية العربية. ولا تذكر المراجع القديمة أى كتاب ألفه عروة عن المغازى، ولكن حاجى خليفة يقول إنه أول من صنف فى المغازى[4] . ولم يعن عروة بجمع الأخبار عن جميع فترات حياة النبى فحسب، بل عنى أيضا بحوادث الخلفاء الأولين أيضا، فنراه يعالج وقعتى القادسية واليرموك وبعض حوادث فتوح الشام[5] . ويعنى أيضا بتاريخ الزبيريين، ولذلك نرى أكثر أخبار الحزب الزبيرى وحروبه وفتنه مروية عنه فى الكتب التاريخية مثل الطبرى وحلية الأولياء أو الكتب الأدبية مثل الأغانى[6] .

وتمتاز كتابات عروة بأنها لا تهمل الإسناد إهمالا تاما، كما أنها لا تعنى به عناية متشددة. فهو أحيانا لا يذكره وأحيانا يذكره[7] . ولذلك يكون من الخطأ أن نتهم عروة بتهمة إغفال الأسانيد، وإنما نقول إن الإسناد أصبح عادة فى ذلك

---

(١) نفس المرجع ١٢٨٤ .

(٢) الطبرى: تاريخ ١ : ١٦٣٤ .

(٣) ابن هشام: السيرة ٣ : ٣٤٠ . والطبرى: التفسير ٨ : ٤٢ .

(٤) كشف الظنون ٥ ٦٤٦ .

(٥) الطبرى: تاريخ ١ : ١١٨٥ ، ١١٩٩ ، ١٢٤٢ وغيرها .

(٦) انظر فهرست الطبرى والأغانى والفصل المخصص لعبد الله بن الزبير فى الحلية .

(٧) الطبرى : تاريخ ١ : ١١٤٠ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٥٤ ، ١١٦٧ وغيرها .

الوقت، ولكنه لم يصبح بعد ضربة لازب على كل مؤلف فى التاريخ. وتمتاز كتاباته أيضا بأنها تعنى بالإشارات القرآنية إلى الحوادث الإسلامية، فتحاول شرحها، كما أشرنا من قبل. بل إنه يتجاوز ذلك إلى استعمال الألفاظ القرآنية فى كتاباته، لتشير إلى مدلولها القرآنى، مثل استعماله لكلمة "الفتنة" فى حديثه عن الهجرتين الحبشية والمدنية، متبعا الآية الأربعين من السورة الثامنة. ولا يعنى عروة بالأحاديث وحدها، وإنما يعنى أيضا بالوثائق المكتوبة، مثل رسالة النبى إلى أهل هجر، وإلى زرعة بن ذى يزن، وإلى عبد الله بن جحش[1]. وعلى الرغم من فقه عروة ودينه لم يكن خصما للشعر، ينثره فى الحوادث على لسان المشتركين فيها، مثله فى ذلك مثل النموذج المعروف عن التاريخ الجاهلى. ولكن يبدو أن هذا الدين كان له أثره فى ناحية أخرى، تلك هو خوفه من إبداء رأيه فى الحوادث، وإنما يتبع المأثور والحديث، كما يقول ابنه هشام[2] . ولعل ذلك هو الذى جعله يروى فى تاريخه بعض الأخبار التى لا نستطيع تصديقها بسهولة، وربما كانت هذه الأخبار من أثر أجنبى، يهودى أو حبشى أو نصرانى .

وهذه إحدى رسائل عروة التى أرسلها إلى عبد الملك بن مروان[3] :

"ثنا أبان العطار قال، ثنا هشام بن عروة، عن عروة، أنه كتب إلى عبد الملك".

"أما بعد؛

"فإنك كتبت إلىّ فى أبى سفيان ومخرجه، تسألنى كيف كان شأنه؟ كان من شأنه أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام فى قريب من سبعين راكبا من قبائل

---

(١) البلاذرى: فتوح البلدان ٦٩ ، ٧٩ . والطبرى : تاريخ ١ : ١٢٧٣ .

(٢) ابن حجر: تهذيب ٧ : ١٨٣ .

(٣) الطبرى: تاريخ ١ : ١٢٨٤ .

قريش كلها، كانوا تجارا بالشام، فأقبلوا جميعا معهم أموالهم وتجارتهم. فذكروا لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وأصحابه، وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك، فقتلت قتلى وقتل ابن الحضرمي في ناس بنخلة، وأسرت أسارى من قريش فيهم بعض بني المغيرة، وفيهم ابن كيسان مولاهم، أصابهم عبد ا لله بن جحش وواقد حليف بني عدى بن كعب في ناس من أصحاب رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، بعثهم مع عبد ا لله بن جحش. وكانت تلك الوقعة هاجت الحرب بين رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وبين قريش، وأول ما أصاب بعضهم بعضا من الحرب، وذلك قبل مخرج أبي سفيان وأصحابه إلى الشام.

ثم إن أبا سفيان أقبل بعد ذلك ومن معه من ركبان قريش مقبلين من الشام، فسلكوا طريق الساحل. فلما سمع بهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ندب أصحابه، وحدثهم بما معهم من الأموال، وبقلة عددهم فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب معه، لا يرونها إلا غنيمة لهم، لا يظنون أن يكون كبير قتال إذا لقوهم. وهي التي أنزل ا لله عز وجل فيها "وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم" فلما سمع أبو سفيان أن أصحاب رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم معترضون له، بعث إلى قريش أن محمدا وأصحابه معترضون لكم، فأجيروا تجارتكم. فلما أتى قريشا الخبر، وفي عير أبي سفيان من بطون كعب بن لؤي كلها، نفر لها أهل مكة. وهي نفرة بني كعب بن لؤي، ليس فيها من بني عامر أحد إلا ما كان من بني مالك ابن حسل. ولم يسمع بنفرة قريش رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ولا أصحابه، حتى قدم النبي صلى ا لله عليه وسلم بدرا. وكان طريق ركبان قريش من أخذ منهم طريق الساحل إلى الشام، فخفض أبو سفيان عن بدر، ولزم طريق الساحل، وخاف الرصد على بدر، وسار النبي صلى ا لله عليه وسلم حتى عرس قريبا من بدر. وبعث

النبى صلى ا لله عليه وسلم الزبير بن العوام فى عصابة من أصحابه إلى ماء بدر، وليسوا يحسبون أن قريشا خرجت لهم. فبينما النبى صلى ا لله عليه وسلم قائم يصلى، إذ ورد بعض روايا قريش ماء بدر، وفيمن ورد من الروايا غلام لبنى الحجاج أسود. فأخذه النفر الذين بعثهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم مع الزبير إلى الماء، وأفلت بعض أصحاب العبد نحو قريش فأقبلوا به حتى أتوا به رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، وهو فى معرسه. فسألوه عن أبى سفيان وأصحابه، لا يحسبون إلا أنه معهم. وطفق العبد يحدثهم عن قريش ومن خرج منها، وعن رؤوسهم ويصدقهم الخبر، وهم أكره شيء إليهم الخبر الذى يخبرهم، وإنما يطلبون حينئذ بالركب أبا سفيان وأصحابه، والنبى صلى ا لله عليه وسلم، يركع ويسجد ويسمع ما يصنَع بالعبد. فطفقوا إذا ذكر لهم أنها قريش جاءتهم ضربوه وكذبوه وقالوا: إنما تكتمنا أبا سفيان وأصحابه. فجعل العبد إذا أذلقوه بالضرب، وسألوه عن أبى سفيان وأصحابه، وليس له بهم علم، إنما هو من روايا قريش، قال: "نعم هذا أبو سفيان" والركب حينئذ أسفل منهم، كما قال ا لله عز وجل "إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم" حتى بلغ "أمرا كان مفعولا" فطفقوا إذا قال لهم العبد: هذه قريش قد أتتكم، ضربوه. وإذا قال لهم، هذا أبو سفيان: تركوه. فلما رأى صنيعهم النبى صلى ا لله عليه وسلم انصرف من صلاته، وقد سمع الذى أخبرهم، فزعموا أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال: والذى نفسى بيده، إنكم لتضربونه إذا صدق، وتتركونه إذا كذب. قالوا: فإنه يحدثنا أن قريشا قد جاءت. قال: فإنه قد صدق، قد خرجت قريش تجير ركابها. فدعا الغلام فسأله، فأخبره بقريش، وقال: لا علم لى بأبى سفيان. فسأله "كم القوم"؟ فقال: "لا أدرى وا لله هم كثير عددهم". فزعموا أن النبى صلى ا لله عليه

وسلم قال: "من أطعمهم أول من أمس"؟ فسمى رجلا أطعمهم فقال: "كم جزائر نحر لهم" قال: "تسع جزائر" قال: "فمن أطعمهم أمس". فسمى رجلا. فقال: "كم نحر لهم" قال:"عشر جزائر" فزعموا أن النبى صلى ا لله عليه وسلم قال "القوم ما بين التسعمئة إلى الألف" فكان نفرة قريش يومئذ خمسين وتسعمئة. فانطلق النبى صلى ا لله عليه وسلم فنزل الماء، وملأ الحياض، وصف عليها أصحابه حتى قدم عليه القوم. فلما ورد رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بدرا، قال: هذه مصارعهم. فوجدوا النبى صلى ا لله عليه وسلم قد سبقهم إليه ونزل عليه، فلما طلعوا عليه زعموا أن النبى صلى ا لله عليه وسلم قال: هذه قريش قد جاءت بجلبتها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم إنى أسألك ما وعدتنى. فلما أقبلوا استقبلهم فحثا فى وجوهم التراب فهزمهم ا لله. وكانوا قبل أن يلقاهم النبى صلى ا لله عليه وسلم قد جاءهم راكب من أبى سفيان، والركب الذين معه: أن ارجعوا، ويأمرون قريشا بالجحفة، فقالوا: وا لله لا نرجع حتى ننزل بدرا فنقيم به ثلاث ليال، ويرانا من غشيناه من أهل الحجاز. فإنه لن يرانا أحد من العرب وما جمعنا فيقاتلنا. وهم الذين قال ا لله عز وجل "الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس" فالتقوا هم والنبى صلى ا لله عليه وسلم ففتح ا لله على رسوله، وأخزى أئمة الكفر، وشفى صدور المسلمين منهم".

وإذا أحببنا أن نعرف طريقة عروة فى التأليف من هذه الرسالة، نجده يعنى فى سرده الغزوة بالمقدمات التى سبقتها وأدت إلى وقوعها، ويعنى فى أثناء السرد بإقامة الأدلة على صحة ما يقول من الآيات القرآنية، ونجده يشير إلى الأشياء التى لا يطمئن إليها، أو يخاف أن يتحمل مسئوليتها بكلمة "زعموا"، كما حدث فى روايته عدد قريش والأقوال المنسوبة إلى الرسول صلى ا لله عليه وسلم. ولكن يبدو أنه كانت تأخذه أحيانا حماسة السرد، فينساق وراء الموضوع الرئيسى، ويترك بعض

التفاصيل، فيرجع إليها بعد ما ينتهى، ويقول مثلا: "وكانوا قبل أن يلقاهم النبى صلى الله عليه وسلم قد جاءهم راكب من أبى سفيان" .

هذا ما نستطيع أن نستخلصه من هذه الرسالة، إلى جانب تذوقنا لأسلوبه البسيط، الذى لا يخلو من فصاحة عربية غير متكلفة، بل عاطفة صادقة يحسها القارئ فى ثنايا الوصف.

وهب بن منبه

أما وهب بن منبه المتوفى ١١٠هـ فليس من المدينة، ولكن من ذمار بجوار صنعاء عاصمة اليمن. ولا تذكره كتب السيرة القديمة على أنه أحد رواة السيرة، ولكن حاجى خليفة[١] يقول عنه: إنه جمع المغازى. وقد تبين صدقه، إذ اكتشف بيكر بين مجموعة أوراق بردى شُتْ رينهاردت، المحفوظة فى هيدلبرج مجلدا يحتوى على قطعة من هذه المغازى. وتتناول قطعة هيدلبرج تاريخ العقبة الكبرى، واجتماع قريش فى دار الندوة، والهجرة، وغزوة بنى خيثمة، مما يدلنا على أن وهبا تناول الفترة المكية والمدنية من حياة الرسول. ويقول بعض من رأى هذه القطعة إن وهبا يهمل فيها الإسناد، ويعنى بالشعر[٢] .

وحفظت حلية الأولياء لوهب قطعتين من المغازى، تتناول الأولى فتح مكة[٣]، والثانية وفاة النبى صلى الله عليه وسلم[٤]. وهو يذكر الإسناد فى القطعتين. وهذه هى القطعة الثانية يقول فيها: "فلما كان يوم الأحد ثقل فى مرضه، فأذن بلال

---

(١) حاجى خليفة: كشف الظنون رقم ١٢٤٦٤ .

(٢) هورفتس: كتب المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف، ص٤٣ - ٥٢ .

(٣) الأصبهانى: الحلية ٤ : ٧٩ .

(٤) نفس المرجع ٧٣ .

بالأذان ثم وقف بالباب، فنادى "السلام عليك يا رسول ا لله ورحمة ا لله، الصلاة، يرحمك ا لله" فسمع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم صوت بلال، فقالت فاطمة: "يا بلال، إن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم اليوم مشغول بنفسه". فدخل بلال المسجد، فلما أسفر الصبح قال: "وا لله، لا أقيمها أو أستأذن سيدى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم". فرجع وقام بالباب ونادى: "السلام عليك يا رسول ا لله ورحمة ا لله، الصلاة، يرحمك ا لله". فسمع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم صوت بلال، فقال: "ادخل يا بلال، إن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم مشغول بنفسه، مر أبا بكر يصلى بالناس". فخرج ويده على أم رأسه وهو يقول: "واغوثاه با لله، وانقطاع رجائى، وانقصام ظهرى. ليتنى لم تلدنى أمى، وإذ ولدتى ليتنى لم أشهد رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم هذا اليوم" ثم قال: "يا أبا بكر: ألا إن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أمرك أن تصلى بالناس". فتقدم أبو بكر رضى ا لله عنه للناس، وكان رجلا رقيقا، فلما نظر إلى خلو المكان من رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم لم يتمالك أن خر مغشيا عليه، وصاح المسلمون بالبكاء .. فلما كان فى الاثنين اشتد به الوجع، وأوحى ا لله تعالى إلى ملك الموت عليه السلام، أن اهبط إلى حبيبى وصفيى محمد صلى ا لله عليه وسلم فى أحسن صورة، وارفق به فى قبض روحه. فهبط ملك الموت عليه السلام فوقف بالباب شبه أعرابى، ثم قال: "السلام عليكم، يا أهل بيت النبوة .." .

وهذه الفقرة طويلة مفصلة، ولكن قارئها لا يسعه إلا أن يشك فيها الشك الشديد، فأسلوبها مما لا نألفه فى أساليب تلك الفترة، وعباراتها غريبة عن الرجل العربى الذى يعيش فى ذلك العصر، وقد لعب فيها الخيال دورا كبيرا. ولذلك إذا صحت نسبتها لوهب، فإننا لا نستطيع أن نطلق عليه لفظ مؤرخ، وإنما يلائمه لفظ قصاص .

ويجب أن نذكر أن وهبا اتجه فى التاريخ وجهة جديدة لم تعن بها مدرسة المدينة قبله، تلك هى عنايته بأخبار أهل الكتاب، وتاريخ وطنه اليمن. فالأستاذ هوروفتس ينسب لوهب "كتاب المبتدأ" الذى عزاه ابن النديم لحفيده عبد المنعم[1]. ويرى أن العنوان يشير إلى مبتدأ الخلق. ولكننا لا نرى داعيا لهذا، نرى أنه ربما جمع عبد المنعم مواد كتابه مما فى كتب وهب الأخرى، وخاصة كتابه فى تاريخ اليمن، الذى عنى فيه بتاريخ الخليقة والأنبياء. ولم يعن وهب بالأنبياء وحدهم بل بالعباد أيضا[2] ولعل الكتاب الذى ينسبه إليه حاجى خليفة عن "الأخبار[3]" هو نفس كتابه عن العباد .

ويعتمد وهب فى جميع هذه الكتب على أخبار أهل الكتاب، يهودا ومسيحيين، اعتمادا شديدا. وقد اشتهر بذلك حتى قيل عنه إنه قرأ ٧٠ أو ٧٢ أو ٧٣ أو ٩٢ من كتبهم المقدسة[4]. ولكننا لا نستطيع الاطمئنان إلى هذا القول، وإنما نرجح أنه استقى هذه الأخبار من أهل الكتاب الذين اتصل بهم فى موطنه اليمن، الذى اشتهر منذ الجاهلية باستيطان هاتين الديانتين وتصارعهما فيه. بل بلغ الأمر بهذه الشهرة إلى حد أن نسب إلى وهب كتاب يسمى "الإسرائيليات"، كما يقول حاجى خليفة[5]. ولكن ياقوتا يقول عنه إنه كان "كثير النقل من الكتب القديمة المعروفة بالإسرائيليات"[6]، أى يستعمل اللفظ وصفا لمصادر وهب، عنوانا لأحد

---

(١) ابن النديم : الفهرست ٩٤ .

(٢) ابن سعد: الطبقات ج٧ من القسم الثانى ص٩٧ .

(٣) حاجى خليفة: كشف الظنون ٤ : ٥١٨ .

(٤) ابن سعد: الطبقات ٥ : ٣٩٥ وكتاب التيجان ٢ .

(٥) حاجى خليفة: كشف الظنون ٥ : ٤٠ .

(٦) ياقوت: معجم الأدباء ٦ : ٢٣٢ .

كتبه ولذلك يرجح أن كتاب الإسرائيليات هذا عبارة عن مجموعة الأخبار التى استقاها وهب من أهل الكتاب جمعها بعض المتأخرين، وزاد عليها حتى صارت كتابا، عرفه حاجى خليفة بذلك الاسم. وقد قام بتلك المحاولة ثانية شوفان[1]، ولكنها مخفقة، لأن هذه الأخبار غير كافية لتكوين كتاب، ولأنها دخلها كثير من الانتحال حتى عارض بعضها بعضا، وكثر فيها الخلط والتشويش. ولا يلام وهب كل اللوم على هذا الخطأ والتعارض، لأن الأخبار الصحيحة عنه تطابق أخبار أهل الكتاب مطابقة كثيرة. وما شذ عن ذلك يرجع إلى تغيير نفس المصادر التى استقى منها وهب، أو إلى تغيير منه لتلائم الذوق الشعبى، أو هى من عمل المتأخرين الذين غيروا فيها لتلائم القصص الشعبى .

والأمر الثانى الذى يمتاز به وهب هو كتابة تاريخ وطنه اليمن الخرافى القديم، فى رسالة خاصة تسمى "كتاب الملوك المتوجه من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم"، كما يقول ياقوت[2]. ولسوء الحظ لم يصل إلينا هذا الكتاب، وإنما وصل إلينا كتاب يسمى "كتاب التيجان فى ملوك حمير". وهو من رواية أبى محمد عبد الملك بن هشام عن أسد بن موسى عن أبى إدريس بن سنان عن جده لأمه وهب بن منبه. ولكن كل من يتصفح الكتاب يستطيع أن يرى بسهولة أنه ليس كله لوهب، وإنما تصرف به ابن هشام تصرفه فى سيرة ابن إسحاق، وإن كان لا يصرح بذلك كما فعل فى السيرة. ولذلك لا نستطيع أن نعرف مدى تصرفه، غير أننا يمكننا أن نعرف الإضافات التى جلبها من روايات أخرى، صرح بسندها فهو يروى أخبارا عن محمد بن إسحاق عن طريق تلميذه

---

(١) النسخة المصرية من ألف ليلة وليلة ٥٧ .

(٢) ياقوت: معجم الأدباء ٦ : ٢٣٢ .

البكائى الذى روى السيرة[1]، أو عن طريق تلميذه الآخر والمسمى أبا عباد الهمدانى[2]، ويروى عن أبى مخنف[3]، وعن محمد بن السائب الكلبى[4]، وعن عبيد ابن شرية[5]، وعن بعض المحدثين[6] ولكنه إلى جانب ذلك يروى مجموعة كبيرة من الأخبار التى لا يسندها إلى أحد[7]. وهى بالطبع ترجع إلى رواة مختلفين، قد يكون منهم وهب نفسه[8]. والأمر الجدير بالملاحظة أننا نرى جل الأخبار قبل الصفحة المئة من الكتاب منسوبة إلى وهب، ولكنها تقل شيئا فشيئا حتى تكاد تنعدم بعد ذلك .

والكتاب كما قلنا يتناول تاريخ اليمن، فيبدأ بخلق العالم، وقصص آدم وأولاده، حتى عهد نوح وأولاده. ثم يلتفت وهب إلى العرب من الساميين، وإلى عرب الجنوب خاصة، ويسرد تاريخ أقيالهم وملوكهم، ويعنى بغزواتهم فى أرجاء الأرض، ويذكر هجرة عمرو بن عامر من اليمن إلى شمال بلاد العرب، كما يذكر ملوك غسان .

ولا يختلف كتاب التيجان لوهب كثيرا عن كتاب عبيد بن شرية فى طريقة العرض. فهما يطلقان لخيالهما العنان فى تصوير الوقائع، ويلونان الحوادث التاريخية بأطياف خيالية قد تخرج بها إلى حد الخيال والأسطورة، كما يدخلان فى تاريخهما

---

(١) كتاب التيجان ٧٥ ، ١١٥ ، ١٢٨ وغيرها .

(٢) ٢٥١ .

(٣) ١٢٥ ، ١٨٠ .

(٤) ١٣٢ ، ٢١٣ ، ٢٤٠ .

(٥) ٦٦ ، ٢٠٩ .

(٦) ١١١ ، ١٣٥ ، ١٦٤ ، ٢٣٧ وغيرها .

(٧) ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٦ وغيرها .

(٨) ٢٥٥ ، وانظر حلية الأولياء جـ٤ .

الكثير من الحوادث التى لا أصل لها، ولذلك يصدق عليهما اسم القصص التاريخى أكثر من أى نعت آخر. ونحن نعدهما امتدادا للحركة القصصية التاريخية التى كانت موجودة فى الجاهلية. ولعل الذى نسخ الكتابين فى نسخة واحدة رجل حكيم، عرف منهما مواطن الشبه هذه، التى تجعلنا لا نجد بينهما كبير فرق .

ويكشف هذا الكتاب عن بعض خصائص وهب، فهو مثل الجاهليين مغرم بالشعر، مكثر من روايته. وأكثر هذا الشعر منحول سخيف ركيك، ينسب وهب إلى آدم أنه قال حين قتل هابيل[1] :

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح
وجاورنا عدو ليس يهدى ... لعين لا يموت فأستريح
أيا هابيل يا ثمر الفؤاد ... أبعد العين مسكنك الضريح
محل تخلق الأجساد فيه ... ويبلى عنده الوجه الصبيح
فعينى لا تجف عليك سحا ... وقلبى الدهر محزون قريح

ولكن هناك بعض أشعار جيدة. ينسب إلى عبد شمس أنه قال يوصى ابنه بابليون[2]:

ألا قل لبابليون والقول حكمة ... ملكت زمام الشرق والغرب فاجمل
وخذ لبنى حام من الأمر وسطه ... فإن صدفوا يوما عن الحق فاقتل
وإن جنحوا بالقول للرفق طاعة ... يريدون وجه الحق والعدل فاعدل
ولا تظهرن الرأى فى الناس يجترؤا ... عليك به، واجعله ضربة فيصل
ولا تأخذن المال من غير وجهه ... فإنك إن تأخذه بالرفق تسهل

---

(١) ١٧ .
(٢) ٤٩ .

ويروى وهب أيضا بعض أشعار ينسبها للنابغة الذبيانى، ولبيد، والأعشى، وامرئ القيس[1]. أما بيت النابغة ومقطوعة لبيد فهما فى ديوانيهما، وأما مقطوعتا الأعشى وامرئ القيس فلم أجدهما فى ديوانيهما المطبوعين .

وقد تأثر وهب بالقرآن أيضا فى القصص التى ورد ذكرها فيه، فيحاول أن يتبع خطاه، وأن يستند إلى آياته. يقول فى وصفه الخلق[2]: "فاضطرب الماء وهاج، فاصطفق، فأزبد، فصار أرضا، فخلق الله الحوت والبحر من ذلك الزبد ثم رفع الله السماء وهى دخان "فقال لها وللأرض آئتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين، فقضاهن سبع سماوات فى يومين" وخلق الملائكة، وأوحى فى كل سماء أمرها، أسكنهم السماوات يسبحون ويهللون ويقدسون الواحد القهار، وخلق الجبال فى الأرض أوتادا" .

وتظهر عند وهب نزعة إسلامية واضحة، فهو يعنى بجلب آراء العلماء المختلفين فى بعض المواضع، مثل اختلافاتهم فى خلق الجنة، وفى قتل قابيل لهابيل[3].

وأسلوب وهب فى كتابه بسيط صريح منطلق لا تثقله أى حلى، ولا يقف عند زينة، ولكن نجد عنده القطع الأرجوانية التى تكلمنا عنها فى أثناء حديثنا عن عبيد، تلك القطع رسائل المشتركين فى الحوادث وخطبهم وشىء من حوارهم قال وهب[4]: "ولما أراد الله إتمام أمره، وإظهار العربية، أنزل كتابا مقطعا، وهو:

---

(١) ٧٦ ، ٧٧ ، ١١٥ .

(٢) ٣ .

(٣) ٢٦ .

(٤) ٢٦ .

"شهد الله بالحق، بسم الله الرحمن الرحيم، شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة، وأولو العلم، قائما بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. حكم الحى القيوم أنه إذا اعتكر الزمان، وكثر النسيان، وحكم فى ذرية آدم الشيطان، وغلب هذا اللسان، فعبدت الأوثان، وقتل الولدان: أن يبعث الله محمدا بالعدل والبيان، يصدع بالقرآن، وينصر الإيمان، زمان ظهور السودان، نبى لا نبى بعده، ولم يخلف الله وعده .."

وتذكرنا هذه القطع الأرجوانية بالشاعر الشعبى فى المقاهى فى مصر، إذ نراه يقص حكايته بأسلوب بسيط منطلق، حتى يأتى إلى حديث أبطال قصصه وخطبهم، ورسائلهم، فنرى أسلوبه يرتفع ويجمل، بل نراه يفخم من لهجته وينطق بها متعملا متزويا. ولا يظهر فى هذه القطع الأرجوانية من الحلى إلا السجع والازدواج وتوازن العبارات. ويبدو أن وهبا كان عارفا باللغة وأساليبها الأدبية. يقول فى شرحه للآية "لا عاصم اليوم من أمر الله" فى أثناء كلامه عن نوح[1]: "والعرب تجعل فاعل فى موضع مفعول، قال الله: "فى عيشة راضية" و "ماء دافق" أى "مرضية ومدفوق" .

وأخيرا فى تاريخ وهب ما وجدناه فى مواعظه من إسرائيليات تنفذ إليه وتشيع فيه، وخاصة أن الموضوعات التى تناولها كانت تساعد على هذا الانتشار وأظهر ما تتضح هذه الإسرائيليات فى الجزء الأول من الكتاب الذى يعالج فيه المؤلف كيفية خلق العالم وآدم وأولاده حتى نوح عليه السلام وأبنائه الثلاثة. كما يشتد وضوحها أيضا فى تناوله لقصة بلقيس وسليمان. ويبدو أن وهبا كان يحسن

---

(١) ٢٤ .

العبرية والسريانية، فنراه يذكر الاسم وترجمته العربية، فقينان عبرانى تفسيره باللسان العربى مشترى[1]، ومهليل عبرانى وتفسيره باللسان العربى ممدوح[2] ومالا لى سريانى وتفسيره بالعربى مسيح ا لله[3] .

ويلاحظ عليه الأستاذ كرنكو وهو يصف غزوات ذى القرنين قائلا[4]: "هذا الشعب ينفذ إلى جابرصا، وهذا الشعب يصل إلى هرات ومرو وسمرقند، وهذا ينفذ إلى جاجا وبلخا وحابلجا وبارد، وأرض ياجوج وماجوج" يلاحظ عليه ملاحظة جديرة بالاهتمام ويقول[5]: "هذه الأسماء كلها محرفة فى الأصل، والمراد بجاجا مدينة جاج فيما وراء النهر، وهى بجيمين فارسيين، وقد عربت العرب اسم هذه المدينة فقالت شاش. وبلجا محرف من بلخ بالخاء، وحابلجا لعله محرف من جابلق. والظاهر أن هذه الأسماء كلها مأخوذة من كتاب باللغة الآرامية بحيث فى آخرها ألف. وأما بارد فلا أدرى أى بلد يعنى بهذا".

فلو صدقت هذه الملاحظة لكان وهب يحسن الآرامية أو يأخذ عمن يحسنها.

ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل نراه يذكر بعض اللغات الأخرى مثل الحميرية حيث يقول[6]: وكان يقال لحمير "العرنجج"، والعرنجج: العتيق" وحين يقول[7]: "ذو شدد بلغة حمير كقولك: ذو شطط بن مناح أى ذو عطاء"، ومثل اللغة الحامية

---

(١) ٢١ .

(٢) ٢١ .

(٣) ٢١ .

(٤) ٩٩.

(٥) هامش ٩٩.

(٦) ٥٦.

(٧) ٧٨.

حين يقول[1] : والشام اسم أعجمى من لغة بنى حام، وهو طيب تفسيره بالعربى" .

قد نخرج من هذه الشواهد ونحن على مايشبه الاطمئنان من معرفة وهب باللغة العبرية والسريانية، وفى أنفسنا شيء من معرفته باللغة الآرامية والحميرية.

ومما يزيدنا يقينا بمعرفته اللغات غير العربية ذلك القول فى كثير من المراجع بأنه قرأ الكتب، أو العدد الفلانى منها، وأن تفسيره الكلمات العبرية والسريانية كان صحيحا فى أغلبه. وربما استمد وهب بعض معارفه مما كان شائعا من قصص بين أهل الكتاب، وإن لم يوجد فى إنجيل أو توراة.

هذا هو وهب بن منبه فى "كتاب التيجان" صورة مكبرة مهذبة من عبيد ابن شرية، صورة أحاطت بما تركه عبيد من الأخبار، وأكثر من الإضافات الأجنبية عن العرب الجاهليين، وهى إضافات أملاها الإسلام والقرآن، وإضافات أملاها الاتصال الشديد بأهل الكتاب، وتقبُّل المسلمين لمعلوماتهم ومعارفهم. وإذن فوهب هو المؤرخ القصاص، الذى تغنى بمفاخر وطنه، وأشاد بها ملحمة نثرية بسيطة صريحة، تلبس وشيا من الشعر والقرآن والرسائل والخطب والأحاديث المحبرة المجملة، وقد صاغها الخيال فى إطار أدبى جذاب.

وهذه فقرة من كتاب التيجان[2] :

"ملك الهمال بن عاد"

المعروف بذى شدد، ملك متوج

وإنه لما مات لقمان بن عاد صار الملك إلى أخيه الهمال بن عاد بن اللطاط بن

---

(١) ٤٩.

(٢) ٧٨.

السكسك بن وائل بن حمير. والهمال بن عاد هو ذو شدد، فلما صار الملك إلى همال ذى شدد دخل إلى المغارة التى دفن فيها أخوه شداد بن عاد، فأخرج التاج وتتوج به. وكان لقمان غيبه فى تلك المغارة، لأنه لم يكن متوجا، كان متواضعا لله. فلما ولى الهمال بن عاد أخذ الملك أخذا شديدا، فولى ذلك حينا من الدهر ثم مات. وإنما قيل له ذو شدد بلغة حمير كقولك ذو شطط بن مناح، أى ذو عطاء".

وينسب حاجى خليفة[1] إلى وهب كتابا آخر يسمى "كتاب الفتوح". ولكن المؤرخين الآخرين لا يذكرون عنه شيئا آخر.

عاصم بن عمر

نرجع إلى المدينة لنجد عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى المتوفى عام ١١٩هـ أو ١٢٠هـ. وقد روى عاصم عن أبيه، واشتهر بأحاديثه عن حياة الرسول عامة، حتى وصفه ابن قتيبة بأنه "صاحب السير والمغازى[2]"، وروى عنه محمد بن إسحاق والواقدى.

وتوضح اقتباسات ابن سعد فى طبقاته عناية عاصم بالفترة المكية من حياة الرسول، إلى جانب عنايته بالفترة المدنية. كما توضح مقتطفات الطبرى أنه اهتم بتاريخ الخلفاء الراشدين، وخاصة أخبار فتنة عثمان. ويذكر عاصم سند رواياته فى غالب الأحيان، ولكنه يهمله كثيرا أيضا، ويتبع غيره فى رواية الأشعار على السنة المشتركين فى

---

(١) حاجى خليفة: كشف الظنون ٤:٣٨٧.

(٢) ابن قتيبه: المعارف ٢٣٦.

الحوادث[1] وإنما يمتاز بأنه لم يقتصر على جمع الحوادث وروايتها، بل كان يبدى رأيه فيها، ويعلق عليها[2].

وهذا مثال من أخباره فى وصف بيعة العقبة [3]:

قال إسحاق، وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة:

إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى، أخو بنى سالم بن عوف: يامعشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن؛ فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة[4] الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال: الجنة. قالوا: ابسط يدك: فبسط يده، فبايعوه.

وأما عاصم بن عمر بن قتادة فقال: والله ما قال ذلك العباس إلا ليشد العقد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أعناقهم.

---

[1] ابن هشام : السيرة النبوية ٢ : ٦٧ ، ٤ : ١٣.

[2] نفس المرجع ٢: ٨٩.

[3] نفس المرجع ٨٨.

[4] نهكة الأموال: نقصها.

الزهرى

أشهر مؤرخى جيل التابعين هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى المتوفى عام ١٢٤هـ. وقد أمره خالد بن عبد الله القسرى بكتابة السيرة له[١]، كما أمره أيضا بكتابة كتاب عن القبائل العربية الشمالية، ففعل ولم يتمه[٢]. ومن الواضح أن قُرَّة ابن عبد الرحمن يعنى الكتاب الأخير بقوله: "لم يكن للزهرى كتاب إلا كتاب نسب قومه[٣]". ويبدو أن الزهرى كان واسع المعرفة بالأنساب، يقول عنه الليث[٤]: "وإن حَدّث عن العرب والأنساب قلت: لا يحسن إلا هذا". ويخبرنا الزهرى نفسه أنه كتب "أسنان الخلفاء" لجده [٥] ، وهى عبارة عن قائمة يذكر فيها تاريخ وفاة الخلفاء وأعمارهم عند الوفاة، ومقدار ملكهم، كما يظهر من القطعتين اللتين اقتبسهما منها الطبرى. ونسب له شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى كتابا يسمى "مشاهد النبى صلى الله عليه وسلم" رواه عنه يونس بن يزيد[٦]. ولا يصل إلينا من الزهرى كتاب خاص مستقل فى التاريخ، على الرغم من كثرة ما دونه لنفسه أو للأمويين، حتى كثرت القصص عن هذا التدوين[٧] . ولكن بعض المتأخرين جمع الأحاديث التى اقتطفتها من مدوناته كتب الأحاديث المتأخرة فى مجلد سماه "الزهريات"[٨] .

---

(١) الأصفهانى: الأغانى ١٩ : ٦٩.

(٢) نفس المرجع ٥٩.

(٣) الذهبى: تراجم رجال روى محمد بن إسحاق عنهم ٦٨.

(٤) أبو نعيم : الحلية ٣: ٣٦٠.

(٥) الطبرى: التاريخ ٢: ٤٢٨، ١٢٦٩.

(٦) السخاوى: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ٨٨.

(٧) ابن سعد: الطبقات ٢ : ١٣٥.

(٨) كتاب المغازى الأولى ومؤلفوها ٦٥ - ٨٤.

ويبدو من الشذرات الباقية من كتابات الزهرى فى الطبقات خاصة أنه تناول حياة الرسول عامة، ولم يقصر نفسه على الغزوات الفعلية وحدها، وقد تسربت إلى أخباره بعض الإسرائيليات، حتى قال عنه الليث[1]: "وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب لقلت: لا يحسن إلا هذا". ويُعزى إلى الزهرى الفضل فى أنه كان أول من قرن بين الأحاديث المختلفة المصادر فى موضوع واحد لإدماجها فى حديث واحد إجمالى، يصدره بأسماء الرواة مجتمعين[2]. وكانت هذه خطوة إلى الأمام فى العرض التاريخى. وكان الزهرى أيضا أول من عنى بتدوين الأنساب، فاتجه بذلك وجهة جديدة فى التاريخ. وقد سار الزهرى على منوال غيره من المؤلفين فى ذكر الإسناد تارة[3]، وحذفه أخرى[4]، وفى العناية بإدخال الشعر فى أخباره[5] .

وللزهرى فضل كبير على الحركة التاريخية، إذ أنه نشر كتبه بين الجمهور، وحض على ذلك[6] . عن يونس قال الزهرى: "إياك وغُلول الكتب" قلت: "وما غلولها؟ "قال" حبسها عن أهلها[7]". وقد افتخر بنشر العلم فقال: "ماصبر أحد على العلم صبرى، ولا نشره أحد نشرى[8]".

وهذه فقرة من كتاب "أسنان الخلفاء" تظهر لنا طريقته فيه.؟ قال

---

(١) أبو نعيم: الحلية ٣: ٣٦٠.

(٢) ابن هشام: السيرة ٣ :٣٠٩.

(٣) أبو نعيم: الحلية ٣: ٣٦٥.

(٤) ابن هشام : السيرة ١: ١٢ ، ٧٢، ٣٣٨، وغيرها.

(٥) ابن هشام: السيرة ٤: ٥٩، ٢١٥ ، ٢٣٨ ، وغيرها.

(٦) أبو نعيم: حلية الأولياء ٣: ٣٦٦.

(٧) نفس المرجع.

(٨) نفس المرجع.

الطبرى[1] "عن هشام بن الوليد المخزومى أن الزهرى كتب لجده أسنان الخلفاء، فكان فيما كتب من ذلك:

"ومات يزيد بن معاوية وهو ابن تسع وثلاثين. وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر، فى قول بعضهم، ويقال ثمانية أشهر".

وهذه فقرة من حياة الرسول فى مكة تتناول مبعثه صلى ا لله عليه وسلم[2] "قال ابن إسحاق، فذكر الزهرى، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضى ا لله عنها أنها حدثته: "أن أول ما بُدِئ به رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم من النبوة، حين أراد ا لله كرامته ورحمة العباد به، الرؤيا الصادقة، لايرى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم رؤيا فى نومه إلا جاءت كفَلَق الصبح". قالت: "وحبب ا لله تعالى إليه الخَلْوة، فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده".

وأسلوب الزهرى كما يبدو من هذه الفقرات سهل منطلق جميل بسيط.

موسى بن عقبة

ينقضى جيل الزهرى، ويظهر جيل آخر، كله من تلاميذه. ونبدأ بموسى بن عقبة المتوفى عام ١٤١هـ. وهو من المشهورين بمعرفة المغازى، وألف فيها كتابا رواه عنه ابن أخيه إسماعيل بن إبراهيم المتوفى عام ١٥٨هـ[3] وقد ضاع هذا الكتاب إلا شذرات نحاول أن نتبين صورته منها. ويبدو أنه كان أصغر حجما من كتب المغازى الأخرى، لأن مالك بن أنس

---

(١) ٢ : ٤٢٨.

(٢) ابن هشام: السيرة ١ : ٢٤٩.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٥: ٣١٠.

يقول عنه [1] : "عليكم بمغازى موسى بن عقبة ... فإنه رجل ثقة، طلبها على كبر السن، ولم يكثر كما كثر غيره، وقد أكد بعضهم لألويس شبرنجر Aloys Sprenger فى دمشق أنه توجد منه نسخة هناك، ولكنه لم يستطع أن يراها[2].

ولكن وجدت فى المكتبة البروسية الرسمية قطعة من هذه المغازى، ترجمها الأستاذ إدوارد سخاو E. Sachau إلى الألمانية فى عام ١٩٠٤م[3] ويتضح من هذه القطعة أن موسى لم يتناول المغازى بالمعنى الخاص، بل تناول الهجرة أيضا. وقد اقتبس ابن سعد كثيرا منه عن طريق أستاذه الواقدى[4]، وعن طريق ابن أخى موسى السابق ذكره[5]. وتكشف لنا هذه المقتطفات أن مغازى موسى كانت تحتوى على قوائم بالمهاجرين إلى الحبشة، وبالمشتركين فى بيعتى العقبة، وبالمحاربين فى بدر[6]، فتدعم قول ابن حجر بأنه كتب هذه القوائم عند ما رأى شُرَحبيل بن سعد يدخل فى البدريين من لم يشهد بدرا[7]. وكان الطبرى من الذين رجعوا إليه، فاقتبس منه أخبارا يشير أكثرها إلى عهد الخلفاء الراشدين، والأمويين، إلى جانب عهد الرسول[8].ويروى فى الأغانى خبر يدل على أن موسى بن عقبة اهتم بالأحداث

---

(١) ابن حجر : تهذيب التهذيب ١٠: ٣٦١.

(٢) المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف ٨٥ -٨٩.

(٣) سخاو: القطعة البرلينية من مغازى موسى بن عقبة، (تقرير عن أعمال المجمع البروسى للعلوم عام ١٩٠٤م).

(٤) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٤١، ٨ : ١٠، ١١، ١٧١، ١٩٠، وغيرها.

(٥) نفس المرجع ٢: ١ ، ٣ : ١ ، وغيرها.

(٦) ابن سعد: الطبقات ٢: ١ ، ٣ : ١.

(٧) ابن حجر: تهذيب التهذيب. ١ : ٣٦١.

(٨) ابن سعد الطبقات ٥ : ٣٨٣.

الجاهلية أيضا[1] .

نرى مما سبق أن موسى بن عقبة ينفرد عن المؤلفين قبله بعنايته الزائدة بالقوائم، وتدوينه لتاريخ الخلفاء الراشدين، وبعض الأمويين، بل التاريخ الجاهلى أيضا. ويختص بمراعاته أكثر من غيره لنظام الإسناد[2]، وإن تركه أحيانا[3]. ويعنى أيضا بالأخذ عن مدونات من سبقه، مثل ابن عباس[4] ، كما يعنى بالوثائق المكتوبة[5] . ويقتبس بعض الأشعار [6] ، ويحاول ترتيب الحوادث ترتيبا زمنيا[7] . ويمتاز أيضا بعنايته بأخبار الحزب الزبيرى، ولعل سبب ذلك أنه يكثر الرواية عن جده لأمه أبى حبيبة مولى الزبير بن العوام[8] ، كما يروى عن علقمة بن وقاص الليثى الذى يبدو أنه كان فى جيش الزبير وطلحة يوم الجمل[9] .

وهذه فقرة من تاريخه تبين لنا طريقة تناوله وأسلوبه[10] : موسى بن عقبة عن أبى حبيبة مولى الزبير قال: "لما قتل الناس عثمان رضى الله عنه وبايعوا عليا، جاء على إلى الزبير، فاستأذن عليه، فأعلمته به، فسل السيف، ووضعه تحت فراشه، ثم قال: "ائذن له" . فأذنت له ، فدخل فسلم على الزبير، وهو واقف بنحوه، ثم

---

(١) أبو الفرج: الأغانى ٣: ١٦.

(٢) الطبرى : التاريخ ١: ٢٥٠، ١٨٥١ ، ٢٠١٤ وغيرها.

(٣) الطبرى: التاريخ ١: ٢٧٥٥.

(٤) ابن سعد : الطبقات ٥: ٣١٦.

(٥) البلاذرى: فتوح البلدان ٨٠.

(٦) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٤١، وغيرها.

(٧) هو روفنس: المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف ٨٩.

(٨) الطبرى: التاريخ ١: ٢٩٨١ ، ٢٩٩٨ وغيرها.

(٩) نفس المرجع ٣١٠٣، ٣١٣٧.

(١٠) نفس المرجع ٣٠٧٣.

خرج. فقال الزبير: "لقد دخل المرء، ما أقصاه. قم فى مقامه فانظر: هل ترى من السيف شيئا؟ "فقمت فى مقامه، فرأيت ذباب السيف فأخبرته، فقال: "ذاك أعجل الرجل". فلما خرج على سأله الناس، فقال: "وجدت أبَرَّ ابن أخت وأوصله". فظن الناس خيرا، فقال على: "إنه بايعه".

ويظهر لنا فى هذه الفقرة نظرة الحزب الزبيرى لمسألة الخلافة بين على والزبير، أكثر مما يظهر أى شىء آخر. وهذا ما يلاحظ على موسى فى أغلب أخباره التى يتتبع فيها أخبار الزبيريين حتى عهد عبد الملك بن مروان.

سليمان بن طرخان

تنتقل الكتابة التاريخية إلى البصرة ليظهر فيها سليمان بن طرخان المتوفى عام ١٤٢هـ. ولم تذكر المراجع القديمة التى بين أيدينا أنه ألف كتبا، وإن كنا نرى اسمه يتردد فى الطبرى. ولكن الأستاذ فون كريمر وجد مخطوطا يحتوى على مغازى الواقدى التى لا تصل إلا إلى إجلاء بنى النضير من المدينة ثم تكمل بجزء من مغازى أبى المعتمر سليمان بن طرخان التيمى المسماة "السيرة الصحيحة" كما يقول الناسخ[1]. وتبدأ سيرة سليمان بالكلمة الأولى فى السطر ١٩ من الصفحة ٣٦٠، وتنتهى فى الصفحة ٤٢٧. فهى تتألف من ٧٧ صفحة من النسخة المطبوعة.

ولا نستطيع من هذا الجزء الباقى من سيرته أن نحكم: هل تناول التاريخ الجاهلى، وتاريخ النبى فى مكة، أو اقتصر على المغازى وحدها، وإن كان الاسم "السيرة" قد يجعلنا نميل إلى الظن بأنه تناول الفترة المكية من حياة الرسول أيضا.

---

(١) فون كريمر : مغازى الواقدى ٤٣٨، المقدمة ٢٣.

ولكن الطبرى يذكر له خبرين عن خلق آدم[1] ، وعن حرق إبراهيم[2]، ثم لم يذكر له شيئا فى حياة الرسول، وإنما يرجع إليه ثانية فى عهد عثمان، حيث يروى بعض ما حدث فى الفتنة. ولا ندرى لهذا سببا: أكان الطبرى غير واثق بمغازيه، أم لم تصل إليه، أم لم يؤلف سليمان مغازى، وهذه المغازى التى بين أيدينا محمولة عليه.

ويرى قارئ "سيرته" أن الأخبار موجزة مضغوطة منسقة منتظمة لا تكثر خلالها الفواصل والزوائد، كما نرى عند غيره من المؤرخين. فهو لايذكر الأسانيد، ولا يعنى بالروايات المتعددة، وإنما يسير على رواية واحدة لا يتعداها. ويمتاز وصفه بالقوة والحياة، يشعر القارئ أنه مشرف على المعركة يرى الأبطال ويشاركهم مشاعرهم وأفعالهم، كما يشعر بأن المؤلف لا يكتفى بمجرد الأعمال وإنما يدقق فيها ويبسطها بسطا صادقا، يجعلنا نستطيع أن نميز ما يدور فى خلجات المؤمنين فى كل موضع من المواضع. وكثيرا ما تكون هذه الانفعالات فى غير صالح المسلمين[3].

ولكننا نراه يأتى بروايات غريبة فى الغزوات الكبيرة المعروفة، تخالف ما أجمع عليه المؤرخون الآخرون. ولنذكر على سبيل المثال ذلك الدور الذى قام به نعيم بن مسعود الأشجعى فى غزوة الخندق. فسليمان يراه من الجواسيس على النبى، على حين يراه المؤرخون الآخرون من المؤمنين الذين خدموا النبى خدمة عظيمة، وساعد على تفريق كلمة المشركين واليهود بخداعهم. وكذلك يأتى بروايات مخالفة فى غزوات بنى قريظة والحديبية وخيبر ومؤتة ووفاة الرسول. أما المؤلفون الآخرون فلا لا يعنون بذكر رواياته على الرغم من اهتمامهم بسرد غيرها من الروايات الكثيرة.

---

(١) الطبرى: التاريخ ١: ٩١.

(٢) نفس المرجع ٢٦٦.

(٣) انظر غزوة الخندق وغيرها.

ولا ندرى ما سبب هذه الإهمال، إلا أن هناك ظنا يخامرنا وهو أن كثيرا من أخباره كان يصور المسلمين صورا لا ترضيهم أو لا ترضى بعضهم[1] . ويورد سليمان أخبارا عن العباس لا نجدها عند غيره من المؤرخين[2]، وهى كلها فى جانب العباس، مما يغرى المرء بالقول إنها من وحى العباسيين. ولكننا – بعد كل ذلك – نحب أن نشير إلى أن سليمان بن طرخان من المشهود لهم بالعدالة والفضل[3].

ويعنى سليمان بإيراد الآيات القرآنية[4]، وشرح مناسباتها التاريخية، والاعتماد عليها، كما يعنى أيضا بالشعر[5] . ولكن هذا الشعر قليل متضائل بالنسبة لغيره من الكتاب.

وهذه المغازى لها أهمية فوق كل ذلك، إذ أنها أقدم كتاب تاريخى يتناول حياة الرسول، سلم من الضياع، ووصل إلينا شبه كامل، فيما عدا الجزء الذى وجده بيكر من مغازى وهب. وهاك بعض الأمثلة التى تصور لنا طريقة تناوله للتاريخ. يقول فى وصفه لموقعة الخندق [6] : "فلما فرغ رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم من حفر الخندق أتاه المشركون، فنزلوا به فاقتتلوا قتالا شديدا، بلغ من أصحاب النبى صلى ا لله عليه وسلم كل مبلغ. فحصروهم حصارا شديدا ارتاب منه المنافقون، وشكوا فى نبى ا لله صلى ا لله عليه وسلم، وأساءوا. اللفظ فقام رجل من الأنصار يقال له مغيث بن بشير، فقال: "أوعدنا محمد أن يفتح قصور فارس

---

[1] انظر غزوتى الخندق وخيبر.

[2] ٣٩٦، ٤٣٥.

[3] مقدمة فون كريمر ٦ وابن حجر : تهذيب التهذيب.

[4] ٣٦١، ٣٦٤، ٣٧٢، وغيرها .

[5] ٣٧٤، ٣٩٠، ٣٩٦، ٤٠٢ وغيرها.

[6] ٣٦٣.

والروم واليمن، ولا يتبرز أحدنا إلى الخلاء من رحله؟ وا لله لغرور". وتابعه على ذلك رهط من المنافقين، فأنزل ا لله تعالى: "وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا ا لله ورسوله إلا غرورا". وزعموا أن قبيلتين من الأنصار، بنى حارثة بن الحارث وبنى سلمة، هموا أن يخلوا من مراكزهم، وقالوا: يانبى ا لله، إن بيوتنا خَلِيّة، نخاف عليها السَّرقَ". فلهم يقول ا لله تعالى: "يقولون إن بيوتنا عَوْرة، وما هى بعورة، إن يريدون إلا فرارا". وذكر فى سورة أخرى: "إذ هَمَّت طائفتان منكم أن تفشلا، وا لله وليُّهما، وعلى ا لله فليتوكل المؤمنون". فقالوا بعد ذلك: "ما نحب أن نهم بالذى هممنا به إذا كان ا لله ولينا":

ويظهر أسلوب سليمان فى هذه الفقرة سهلا بسيطا سيالا، حارا صادقا موجزا.

وهذه فقرة مما اقتبسه الطبرى من سليمان[1]: "معتمر بن سليمان التيمى. قال ثنا أبى قال قال ثنا أبو نضرة عن أبى سعيد مولى أبى أسيد الأنصارى، قال: "سمع عثمان أن وفد أهل مصر قد أقبلوا، قال: فاستقبلهم وكان فى قرية له خارجة من المدينة، أو كما قال. فلما سمعوا به أقبلوا نحوه إلى المكان الذى هو فيه. قال: وكره أن يقدموا عليه المدينة أو نحوا من ذلك، قال: فأتوه، فقالوا له: "ادع بالمصحف" . قال: فدعا بالمصحف، قال: فقالوا له: "أفتح السابعة" قال: وكانوا يسمون سورة يونس السابعة، قال: فقرأها حتى أتى على هذه الآية "قل أرأيتم ما أنزل ا لله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا، قل آ ا لله أذِن لكم أم على ا لله تَفْتَرون". قال: قالوا له :قِفْ". فقالوا له: "أرأيت ما حميتَ من الحِمَى، آ لله أذن لك أم على ا لله

---

[1] الطبرى : التاريخ ١ : ٢٩٦٣.

تفترى؟" قال: فقال: "امضِهِ، نزلت فى كذا وكذا" قال: وأما الحِمَى فإن عمر حمى الحمى قبلى لإبل الصدقة، فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت فى الحمى لما زاد فى إبل الصدقة، امضه ...".

ويلاحظ فى هذه الفقرة، وفى فقرة ثانية فى الطبرى[1] تتناول تكملة الحادثة، الإكثار من اعتراض "قال" فى السياق، مما لانجد مثله كثيرا عند الطبرى، مما يجعلنا نرجح أنه من خصائص كتاب سليمان الذى أخذ عنه الطبرى. ولكن المغازى التى بين أيدينا ليس فيها هذا الاعتراض الكثير. ونحن لا نستطيع أن نعمم هذا الحكم من فقرتين فحسب، لأن الفقرات الباقية فى الطبرى من القصر بحيث لا تظهر فيها هذه الظاهرة.

عوانة بن الحكم:

من مؤرخى العراق أيضا أبو الحكم عَوَانة بن الحَكَم الضرير الثقة المتوفى عام ١٤٧هـ أو ١٥٨هـ ونسب له ابن النديم فى "الفهرست[2]" كتابين: "كتاب التاريخ" و "كتاب سيرة معاوية وبنى أمية". وقد شك بعض العلماء فى الكتاب الأخير، ونسبه لمنجاب بن الحارث التميمى المتوفى عام ٢٣١هـ.

وروى عبد الله بن المعتز عن الحسن بن عليل العنزى أن عوانة كان عثمانيا يضع الأخبار لبنى أمية، وترجح دائرة المعارف الإسلامية ذلك الرأى[3]. ولكن الهيثم بن عدى يروى خبرا عنه حين قتل محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن

---

(١) نفس المرجع ٣٠٠٦.

(٢) الفهرست ٩١.

(٣) ياقوت: معجم الأدباء ٦: ٩٤، ودائرة المعارف الإسلامية مادة (عوانة).

أبى طالب بالمدينة، وكيف أنه ترحم عليه وذكر فضله، مما يدل على أنه كان يظهر العثمانية تَقيةً منه، وخاصة أنه فى نهاية الخبر السابق يستفسر من الجالسين إذا ما كان أحد عيون الأمويين حاضرا. فإذا تحقق من عدم حضور أحد أخذ يمدح محمدا مدحا رائعا.

ولا تؤيد الأخبار الباقية لنا منه عند الطبرى[1] والبلاذرى[2] تلك التهمة، إذ لا يظهر فيها أى هوى للأمويين. ولعل الطبرى والبلاذرى لم يذكرا لنا تلك الأخبار التى تظهر فيها عثمانيته وأمويته. ويجب أن نحترس فى هذا الرأى لأننا نجد كثيرا من التهم توجه لعوانة تريد الغض من قدره، مثل تلك الأخبار التى تجعله لايميز بين الشعر والقرآن[3] ، على الرغم من قولهم إنه كان عالما بالشعر والفصاحة[4] ، وعلى الرغم من القصة السابقة التى يمدح فيها محمد بن عبد الله بالآية "التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله" مما يدل على معرفة بالقرآن أيضا. كل هذه التهم تدلنا على أنه كان كثير الخصوم، وإن لم نستطع معرفتهم، وسبب خصومتهم له، وإن خامرنا الظن بأن عثمانيته المزعومة ربما كانت سبب هذه العداوة.

ولا تتناول المقتطفات الباقية من تاريخ عوانة شيئا من حياة الرسول، وإنما تبدأ ببيعة أبى بكر، وتصف الردة، وفتح العراق، وفتح بلدان فارس المختلفة مثل المدائن وجَلُولاء، وهمذان، ووقعة الجمل، وحروب على ومعاوية، والحسن ومعاوية،

---

(١) التاريخ ١ : ١٨٢٧ ، ٢٧٥٥ ، ٣٢٠٤ ، وغيرها.

(٢) فتوح البلدان ٦٢، ٩٤ ، ١٨٢ ، ٢٤٠ ، وغيرها.

(٣) ياقوت : معجم الأدباء ٦:٩٤.

(٤) نفس المرجع ٩٥.

وتاريخ العراق، وقتل الحسين، وثورة عبد الله بن الزبير، وتنتهي الأخبار بخروج ابن الأشعث وقتل ابن القِرِّية[1].

ونرى عَوانة في هذه المقتطفات لايعنى بالأسانيد كثيرا، ويبحث عن الموادفي كل مكان حتى ليأخذها من أقارب المشتركين في الحوادث. ويعنى كذلك بإيراد الأشعار.

وهذه فقرة من أخباره[2]: "يحيى بن آدم عن عوانة بن الحكم عن جرير ابن يزيد عن الشعبي، قال، قال عبد الله بن مسعود: لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه، لولا أن مَنَّ الله علينا بأبي بكر: اجتمع رأينا جميعا على ألا نقاتل على بنت مَخاض وابن لَبُون وأن نأكل قرى عربية، ونعبد الله حتى يأتينا اليقين. وعزم الله لأبي بكر رضى الله عنه على قتالهم فوالله مارضى منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية. فأما الخطة المخزية فإن أقروا بأن من قُتل منهم في النار، وأن ما أخذوا من أموالنا مردود علينا، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم".

وأسلوب عوانة منساب منطلق، يعنى في بعض الفقرات بالحوار، والشعر، وما يدور من أبطار الحوادث.

محمد بن إسحاق

أخيرا يظهر محمد بن إسحاق المتوفى عام ١٥٠هـ تقريبا، فيؤلف كتابا يغطى به على جميع هؤلاء المؤرخين المتقدمين، ويجذب أنظار المتأخرين على

---

(١) انظر فهرست الطبرى والبلاذرى.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان ٩٤.

الدوام. ويسمى كتاب إبن اسحاق هذا "كتاب المغازى" . ولم يصل إلينا الكتاب بصورته الأصلية. ولكن وصل إلينا قسط عظيم منه فى سيرة ابن هشام، ويقال إن مكتبة كوبريلى بالآستانة تحتوى على مخطوطة من النسخة الأصلية من الكتاب ولكن الأستاذ هوروفتس يرى أننا إذا ما عاينا هذه المخطوطة وفحصناها فحصا دقيقا. وجدناها نسخة من كتاب ابن هشام لابن إسحاق[1] .

وقيل[2] إن سبب تأليفه المغازى أنه دخل ذات يوم على المنصور وبين يديه ابنه المهدى، فقال له المنصور: أتعرف هذا ياابن إسحاق؟ قال: "نعم، هذا ابن أمير المؤمنين" : قال: "اذهب فصنف له كتابا منذ خلق ا لله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا". فصنف ابن إسحاق هذا الكتاب، فقال له المنصور: "لقد طولته، ياابن إسحاق، إذهب فاختصره". وحفظ المنصور الكتاب الكبير فى خزانته.

ولكن الأستاذ فيك[3] يرى أن ابن إسحاق لم يؤلف كتابه بأمر من الخليفة ولا فى بغداد أو الحيرة، وإنما فى المدينة قبل إقامته لدى العباسيين. ويستدل على ذلك بأن رواته الذين أخذ عنهم جميعا مدنيون ومصريون. ولا يذكر أحدا من العراقيين. كما نجد أحد تلاميذ ابن إسحاق المدنيين يروى الكتاب، وذلك هو إبراهيم بن سعد[4] المتوفى عام ١٨٤هـ بل نرى فى الكتاب حوادث ما كان يرضى لذكرها العباسيون مثل تدوينه اشتراك العباس فى بدر إلى جانب الكفار، وأسر

---

(١) المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف ٩٨.

(٢) ابن هشام : السيرة ١ : ط .

(٣) هوروفتس: المغازى الأولى ومؤلفوها ٩٦.

(٤) نفس المرجع. وياقوت : معجم الأدباء ٦.

المسلمين له[1] ، ذلك الخبر الذى حذفه ابن هشام فيما بعد خوفا من العباسيين. وربما أجرى ابن إسحاق بعض التغييرات الإضافية الطفيفة فى الكتاب إرضاء للخليفة، مثل رواياته عن مناصرة العباس للإسلام، أو اعتناقه له سرا[2] ، وإن كانت هذه الروايات أيضا رواها عنه تلميذه المدنى إبراهيم بن سعد، مما يجعلنا نعتقد أنه لم يجرها فى العراق للمرة الأولى.

وعلى الرغم من عدم وصول النسخة الأصلية من الكتاب كاملة إلينا، وحذف ابن هشام أجزاء كثيرة منه، نستطيع تكوين صورة قريبة من الكمال عنه، بفضل المقتطفات العديدة عند الطبرى والمؤرخين المتأخرين، والتى قد تكون محذوفة عند ابن هشام. ويساعدنا على تكوين الصورة تصريح ابن هشام بما أجراه من تغييرات فى الكتاب، إذ يصدره بقوله [3] "وأنا إن شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل ابن إبراهيم، ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولده، وأولادهم لأصلابهم، الأول فالأول، من إسماعيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يعرض من حديثهم، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل، على هذه الجهة للإختصار إلى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق فى هذا الكتاب، مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شأن وليس سببا لشىء من هذا الكتاب، ولا تفسيرا له، ولا شاهدا عليه، لما ذكرت من الاختصار، وأشعارا ذكرها لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره،

---

(١) الطبرى: التاريخ ١: ١٣٤١ ، ١٣٤٤ . وابن سعد : الطبقات ٤ : ٧ .

(٢) ابن هشام : السيرة ٢ : ٣٠١.

(٣) نفس المرجع ١: ٤ .

وبعض لم يقر لنا البكائى بروايته، ومستقصٍ إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له، والعلم به". وكان ابن هشام دقيقا فى تصريحه بكل ما يفعله من زيادة أو حذف على الدوام. وفيما عدا هذه التغييرات لا يجرى أى عمل من عنده فى النص الأصلى .

ويظن أن الكتاب كان فى أصله مقسما إلى ثلاثة أجزاء: المبتدأ، والمبعث، والمغازى. أما المبتدأ فيتناول التاريخ الجاهلى. وقد خص ابن هشام هذا الجزء بالحذف أكثر من غيره، ولكن الطبرى حفظ جزءا كبيرا منه فى تاريخه وتفسيره وخاصة ما يتعلق بالأنبياء منه، كما حفظ الأزرقى أخبارا كثيرة تتناول تاريخ مكة القديم، ووعى كتاب عبيد بن شرية بعض أخباره كما ذكرنا من قبل.

وينقسم هذا الجزء إلى أربعة فصول: يتناول أولها تاريخ الرسالات السابقة على الإسلام منذ خلق العالم حتى ظهور عيسى. ويرجع ابن إسحاق فى هذا الفصل إلى وهب ابن منبه، وابن عباس، وأهل الكتاب، بل التوراة ذاتها، إلى جانب رجوعه إلى القرآن. ويورد فيه أخبار أهل الكتاب، والقبائل العربية التى ذكرها القرآن مثل عاد وثمود، بل التى لم يذكرها القرآن مثل طسم وجديس. ويتناول الفصل الثانى تاريخ اليمن فى العصور الجاهلية، وسبب عنايته بهذا التاريخ وجود الإشارات العديدة فى القرآن إليهم، مثل إشاراته إلى أهل الأخدود، وأصحاب الفيل. وقد وعى ابن هشام والطبرى جزءا كبيرا من هذا الفصل. وأما الفصل الثالث فيتناول القبائل العربية وعبادة الأصنام. ويتناول الرابع أجداد النبى المباشرين وديانة أهل مكة. ولا يعنى ابن إسحاق فى هذا الجزء بالأسانيد إلا نادرا، وأغلبها فى الفصل الأول .

أما المبعث فيشمل حياة النبى فى مكة، والهجرة، وربما العام الأول من نشاطه فى المدينة، ونراه فى هذا الجزء يصدِّر الأخبار الفردية بموجز حاوٍ لها، ويدون

مجموعات كاملة من القوائم: فقائمة بمن أسلم من الصحابة بدعوة أبى بكر[1]، وأخرى بالمهاجرين إلى أرض الحبشة[2]، وثالثة بمن عاد من أرض الحبشة لما بلغهم إسلام أهل مكة[3]، وأخرى وأخرى، مما يطول حصره. ويوجد فى هذا الجزء وثيقة انفرد بها ابن اسحاق من بين المؤرخين الآخرين، وهى معاهدة النبى الأولى[4]، التى كتبها لينظم التعاون بين المهاجرين والأنصار واليهود، بعد هجرته إلى المدينة مباشرة. ويعنى ابن إسحاق فى هذا الجزء بالترتيب الزمنى للحوادث، كما تزداد عنايته بالأسانيد التى يرجع معظمها إلى شيوخه المدنيين .

وأخيرا المغازى، وهى تتناول حياة النبى فى المدينة منذ أول سهم أطلق فى الحرب إلى وفاته صلى الله عليه وسلم. وتملأ الغزوات الحربية هذا الجزء، فلا يستطيع المؤلف أن يفصّل الكلام إلا عن مرض النبى الأخير ووفاته. ويسير ابن إسحاق فى هذا الجزء على خطة رسمها لنفسه ولم يتجاوزها، إذ يبدأ الخبر بملخص حاو لمحتوياته، ثم يتبعه بخبر من جميع الأقوال التى أخذها من رواته، وفى النهاية يكمله بما جمعه هو نفسه من المصادر المختلفة. وتكثر القوائم أيضا، عمن حضر بدرا من المسلمين، ومن استشهد من المسلمين يوم بدر، ومن قتل ببدر من المشركين، وما ماثل ذلك فى الغزوات المختلفة. ويلتزم ابن إسحاق هنا إيراد الأسانيد، وجميع رواته من المدينة، وأهمهم الزهرى وعاصم بن عمر وعبد الله بن أبى بكر بن حزم، الذين أمدوه بما ساعده فى ترتيبه الزمنى للحوادث. وقد زاد ابن إسحاق المادة التى

---

(١) ابن هشام : السيرة ١ : ٢٦٧ .

(٢) نفس المرجع ٣٤٤ .

(٣) نفس المرجع ٢ : ٣ .

(٤) نفس المرجع ١٤٧ .

أخذها منهم بما جمعه بنفسه من غيرهم من الرواة، ومن أقارب المشتركين فى الحوادث المؤرخة .

وقد لقيت هذه السيرة منذ ظهورها عناية كبيرة، فرواها خمسة عشر تلميذا لابن إسحاق كما يقول فيك[1]. أما ابن هشام فكان يرجع إلى رواية البكائى، وأما الطبرى فكان يرجع فى الغالب إلى رواية سلمة بن الفضل المتوفى عام ١٩١هـ، وأما ابن الأثير فى "أسد الغابة" وابن حجر فى "الإصابة" فكانا يرجعان إلى رواية يونس بن بكير المتوفى[2] عام ١٠٩هـ . ثم كان الناس إلى اليوم يرجعون إليها فى نسخة ابن هشام بعد ظهور هذه :

ونرى ابن إسحاق يرجع فى سيرته إلى العلماء من غير المسلمين فى أخباره عن الحوادث اليهودية والمسيحية والفارسية. ولذلك نراه يذكر بين رواته "بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأول[3]" أو أهل التوراة"[4] أو "من يسوق الأحاديث عن الأعاجم"[5]. ويعد هذا تحولا خطيرا من مدرسة المدينة التى لم تكن تقبل مثل هذه الأخبار، ولا مثل هؤلاء الرواة. فابن إسحاق أول من اقترب بمدرسة المدينة إلى مدرسة اليمن فى قبول هذه الأخبار، حتى إنا نراه يأخذ بعض الأخبار عن وهب بن منبه. بل يذهب ابن إسحاق إلى أبعد من ذلك، فيعطينا فقرات من العهدين القديم والجديد مترجمة ترجمة حرفية[6] .

---

(١) هورفتس: المغازى الأولى ومؤلفوها ١٠٣.

(٢) نفس الموضع .

(٣) الطبرى: التاريخ ١ : ١٤٠ .

(٤) الطبرى: التاريخ ١ : ٤١٣ ، ١٤١ .

(٥) ابن هشام : السيرة ١ : ٣٢٨ .

(٦) هورفتس: المغازى الأولى ومؤلفوها ١٠٥ .

وعنى ابن إسحاق بالرجوع إلى الوثائق والمدونات، كما حاول أن يذكر الأسانيد، ولكن مادته الكثيرة المتنوعة اضطرته إلى توسيع دائرة رواته، وقبول بعض الأحاديث غير المرضية، والإخلال بنظام الأسانيد، مما أزعج مدرسة الحديث وهالها، فكالت له التهم، وسحبت منه ثقتها[1] .

وينفرد ابن إسحاق عن باقي المؤرخين في كثرة الأشعار التي أدخلها في كتابه كثرة أفزعت معاصريه ومن بعدهم. إذ لم يكن يتحقق من صحة الشعر بل يدخل ما يحمل إليه دون تحقيق. ولذلك نجد عنده أشعارا منتحلة ظاهرا انتحالها، مثل تلك التي قيلت في عهد عاد وثمود[2] . ولكن بعض العلماء[3] اعتذر عنه بأنه اقتبس هذه الأشعار لتزيين تاريخه لا لصحتها عنده، فهو ما كان يتمسك بأنها صحيحة لو أثبت له غير ذلك. وكل ما في الأمر أن فن الكتابة التاريخية كان اعتاد إدخال الشعر للتحلية منذ الجاهلية. كما أنه اعتذر عن نفسه بأنه ليس عالما بالشعر وأنه يدون ما يحمل إليه[4] .

وكان ابن إسحاق غاية في النزاهة في تاريخه، يدون آراء المذاهب المتعادية بكل أمانة وبدون تحيز، حتى لقد روى أشعار المشركين في هجاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه[5] ، وحتى اضطر ابن هشام أن يلطف من حدة بعض عبارات هذه الأشعار أو أن يحذفها[6] .

---

(١) ياقوت معجم الأدباء ٦ : ٣٩٩ .

(٢) الطبري : التاريخ ١ : ٢٣٦ وما بعدها .

(٣) هوروفتس: المغازي الأولى ومؤلفوها ١٠٨.

(٤) ابن سلام: طبقات الشعراء ٤ .

(٥) انظر شعر ابن الزبعرى في بدر وأحد في السيرة .

(٦) ابن هشام: السيرة ٣ : ١١ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٣ وغيرها .

ويمتاز ابن إسحاق بأنه لم يكن أول من عرض فترات حياة الرسول باتساق فى كتابه فحسب، بل وسع أفق هذه السيرة، فجعلها تاريخا للرسالة الإلهية عامة، فادخل فيها تاريخ الأنبياء المتقدمين. ويتحلى كذلك بتلك الخصيصى التى تحلى بها أستاذه الزهرى من قبل، وأعنى بها العناية بربط الأحاديث بموجز يربط بينها ويحوى ما تشتمل من أخبار، والعناية بتأليف خبر عام موحد من الروايات المختلفة. وهو يعطينا فى بعض الأحيان تعليقات على الحوادث برأيه. ويظهر ابن إسحاق فى سيرته كاتبا ساحرا، يعرف كيف يجمع مادته بطريقة تجذب انتباه القارئ على الدوام، ويصور لنا الشخصيات التى يصفها بحيث تبرز أمامنا كأننا نراها رأى العين. ومهما اختلفت وجهات النظر فى سيرته، فإنها تقف فوق مستوى سام جدا، بل تزداد قيمتها حين نعرف أنها من أقدم الكتب العربية النثرية التى وصلت إلينا.

ويبدو أن ابن إسحاق لم يكتف بتاريخ الجاهلى والنبوى، بل أراد أن يكمل التاريخ الإسلامى أيضا، فألف "كتاب الخلفاء"[1]. ولكن هذا الكتاب فقد، ولم يصل إلينا منه غير فقرات عند الطبرى، تدون حوادث وقعت فى عهد الخلفاء الراشدين، وعثمان خاصة، بل بعض حوادث العهد الأموى أيضا[2]. ومع ذلك ليست هذه الفقرات كافية لأن تعطينا صورة واضحة نحكم بها على الكتاب.

وهذه فقرة من مغازيه فى غزوة مؤتة[3]: "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثة إلى مؤتة فى جمادى الأولى سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: "إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله

---

(١) ابن النديم: الفهرست ٩٢ وياقوت: معجم الأدباء ٦ : ٤٠١ .

(٢) الطبرى: التاريخ ١ : ١٨٢٣ وما بعدها. والبلاذرى: فتوح البلدان ٢٧٨ ، ٣١٢ ، ٣٢٧ ، وغيرها .

(٣) ابن هشام: السيرة ٤ : ١٥ .

ابن رواحة على الناس" .

"فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف. فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلموا عليهم. فلما ودع عبد الله بن رواحة مع من ودع من أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى، فقالوا: "ما يبكيك يابن رواحة" ؟ فقال: "أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم. ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله عز وجل، ويذكر فيها النار "وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا" فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود" فقال المسلمون: "صحبكم الله، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين" فقال ابن رواحة :

ولكننى أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

أو طعنة بيدى حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مروا على جدثى ... أرشده الله من غاز وقد رشدا

الفصل الثالث

مظاهر الكتابة التاريخية

رأينا أن الكتابة التاريخية العربية نشأت من تيارين مختلفين:

(١) تيار قديم يتألف من القصص الخيالية والأساطير الشعبية المأثورة عن قدماء العرب، التى كان يرويها القصاص المتنقلون عن العرب الشماليين وأنسابهم وأيامهم، وعن ملوك العرب الجنوبيين وفتوحاتهم. وهى قصص لحمتها وسداها الخيال المبالغ، تكثر بها الأشعار، التى كانت فى بعض الأحيان، وخاصة فى الأيام، المحور الذى تدور عليه القصة النثرية، حتى إنه عندما نسيت تلك الأشعار، اندثرت تلك القصص، فاضطر القصاص إلى استحداث أشعار جديدة وإحاطتها بقصص مبتكرة عن هذه الأيام. ولا تعتمد هذه القصص على توقيت تاريخى لحوادثها، بل تتناول الأحداث المهمة، والحروب خاصة، دون ربط بينها، ودون أن تنظم البحث فى المجرى التاريخى العام. ويتمثل هذا التيار الخيالى فى العهد الإسلامى فى عبيد بن شرية ووهب بن منبه .

(٢) والتيار الثانى جديد استحدثه الإسلام وهو تيار السيرة، الذى يتكون من أخبار علمية دقيقة مضبوطة، متفرعة من علم الحديث، ولذلك نالها ما ناله من نقد وتمحيص. وكانت هذه السيرة تتألف من القصص الصحيحة والخيالية التى أحاطت بشخص الرسول بسبب إجلال المسلمين له. وأخذ المؤرخون يجمعون هذه القصص ويروونها، ويربطون بينها، مستعينين بالآيات القرآنية .

وقد لعب التيار الأول، وخاصة فرع الأيام منه، دورا فى هـذا التيـار، وخاصـة فى الفترة المدنية من حياة الرسول، التـى تمتلئ بـالغزوات. ويظهـر هـذا الـدور فـى طريقـة تنـاولهم لهـذه الغـزوات، فإنهـا تشـبه طريقـة تنـاول القصـاص القدمـاء لأيـام الجاهليين بل لعل الرسول صلى ا لله عليه وسلم كان يمثل فى السير دور البطـل فـى قصص الأيام الجاهلية. ونذكر إلى جانب هذا كله آثارا يهودية ومسيحية، بـل آثـارا فارسية ضئيلة، وجدت أيضا فى هذه السير. وتظهر هذه الآثار جميعا عند وهـب بـن منبه الذى تعتبر كتابته روايات تاريخية لا كتبا تاريخيـة. ولكـن تيـار السـيرة كـان لـه صبغة علمية دقيقة فى المدينة أكثر منها فى أى موطن آخر، لارتبـاط المؤرخـين فيهـا بالأحاديث الصحيحة أكثر من المؤرخين الآخرين، ويظهر هذا التيار العلمـى الدقيـق عند أبان وعروة .

وهكذا نرى أن الكتابة التاريخية نشأت نشأة عربية خالصة، لا يد فيهـا للفـرس أو اليونان فهذه الكتابة بجميع صورها استمرار لما كان يوجد فـى الجاهليـة أو تفـرع لعلم الحديث العربى الخالص. وكان أوائل المؤرخين عربا، سواء كـانوا مـن الجنـوب مثل عبيد ووهب، أو من الشمال كأبان وعروة. ولكن هذه الحركة العربية ما لبثت أن تأثرت بمؤثرات خارجية من أهل الكتاب والفرس، بـل صـار جميـع المؤرخـين مـن الموالى فى أواخر القرن الثانى من الهجرة. وإذن فالتاريخ الإسلامى يخالف كثيرا مـن العلوم الإسلامية الأخرى فى نشأته العربية الخالصة، ولكن لا يلبث أن يقع فى أيدى الموالى مثل جميع العلوم الإسلامية الأخرى .

وأخذت هـذه التيـارات التاريخيـة المختلفـة فـى التطـور، فنجـد التـاريخ القبلـى الجاهلى أو الأيام والأنساب يعنى بها فى العراق خاصة، ويدخلهـا علمـاء اللغـة فـى نطاق أبحاثهم، إذ أنها تعينهم على فهم الأشعار التى يريدون جمعها وشرحها ويتمثـل

لنا جهد اللغويين فى هذه الناحية فى نقائض أبى عبيدة المتوفى عام ٢٠٩ هـ التى يروى فيها أخبار الأيام، ويطيل فى ذلك. أما العناية بالأنساب فتتمثل فى محمد ابن السائب الكلبى المتوفى عام ١٤٦هـ ، وغيره من النسابين .

ونجد القصص الخرافية الشعبية تستمر فى الوجود، فيظهر عبيد بن شرية الذى يعنى بتاريخ القبائل البائدة من العرب، ووهب بن منبه الذى يعنى بتاريخ اليمن وأهل الكتاب، ويسير على النمط الجاهلى المأثور فى القصص الشعبية الخرافية المغرقة فى الخيال .

وأما تاريخ السير والمغازى المولود فى المدينة، والمتفرع من علم الحديث فقد تأثر منذ بادئ الأمر بذلك العلم، فظهر الإسناد عند أول كاتبين فيه، وهما أبان وعروة، وإن لم يصر ضربة لازم بل كانا يتجاهلانه كثيرا. وأخذت السير والمغازى تتطور سريعا، فنجد الزهرى يخطو بالتاريخ خطوة بارعة إلى الأمام، إذ يحاول الربط بين الأحاديث، بل يحاول تأليف خبر واحد من الأحادث المختلفة بعد إدماجها، كما يحاول ألا يجعل من التاريخ وقفا على فئة معينة من الناس، وإنما ينشره للجمهور كله. هذا إلى جانب عنايته بالأنساب، وخاصة أنساب قومه .

ويشرع مؤرخو المدينة فى الالتفات إلى ميادين تاريخية أخرى على يد عروة وموسى بن عقبة، إذ يمدان البحث فيشمل تاريخ الخلفاء الراشدين، ثم الأمويين وكان ذلك الامتداد من تأثير السيرة أيضا .

ويتوج هذا التطور بمحمد بن إسحاق المؤرخ الحقيقى، الذى يمثل نهاية تطور السيرة ذات النموذج الدينى عند المحدثين، وذات النموذج الملحمى عند القصاص الشعبيين، والذى يمد بحثه إلى آفاق بعيدة لم يرها المدنيون من قبل، وأعنى بها تاريخ الجاهلية، وتاريخ النبوات قبل محمد عليه الصلاة والسلام، وتاريخ الخلفاء بعد

محمد. فمحمد بن إسحاق هو المؤرخ الذى تتمثل فيه كل التيارات التاريخية الموجودة فى عصره .

وتمتاز الحركة التاريخية العربية بعدة ظواهر، نحاول أن نسجل بعضها هنا غير ما ناقشناه من قبل. وأول هذه الظواهر أن المؤرخين لم يكونوا موظفين حكوميين، وإنما كانوا أناسا عنوا بالتاريخ لمجرد الرغبة الشخصية، وحبا فى ذلك العلم. ولذلك نجدهم يؤلفون ما يخلو لهم من كتب، وعما يخلو لهم من حوادث، دون أن تصدر إليهم الأوامر بتناول أمر من الأمور، وترك آخر، إلا فى أحوال نادرة كان يلتمس الحكام فيها من المؤرخ معالجة بعض الأمور التى تذهلهم. وضمن لهم ذلك حرية الأداء، وصدق التناول، والنزاهة فى معالجة الأحداث، وخاصة أن أكثر هؤلاء المؤرخين كانوا رجال فقه وحديث .

وهاك مثالا يبين مقدار استقلال هؤلاء المؤرخين، وشجاعتهم فى الثبات على آرائهم، وعلى ما يعتقدونه صدقا. روى الشافعى عن عمه قال[1]: "دخل سليمان ابن يسار على هشام (بن عبد الملك) فقال: "من الذى تولى كبره منهم؟" (يشير إلى الآية فى حديث الإفك) قال: "عبد الله بن أبى بن سلول" فقال: "كذبت، هو على. يا ابن شهاب، من هو؟" قال: عبد الله بن أبى" فقال: "كذبت، هو على" قال: أنا أكذب، لا أبالك، فوالله لو نادانى مناد من السماء: إن الله أحل الكذب، ما كذبت. حدثنى سعيد بن المسيب، وعروة، وعبيد الله، وعلقمة بن وقاص، عن عائشة: "إن الذى تولى كبره عبد الله بن أبى" قال: فلم يزل القوم يغرون به، فقال له هشام: "ارحل فوالله ما ينبغى لنا أن نحمل عن مثلك" قال: "ولم، أنا أغتصبتك

---

[1] الذهبى : تراجم رجال روى محمد بن إسحاق عنهم ٧٢ .

على نفسى أو أنت اغتصبتنى؟ فخلِّ عنى" قال: "لا، ولكنك استدنت ألف ألف" فقال: "قد علمت، وأبوك قبلك، أنى ما استدنت هذا المال عليك ولا على أبيك ..

وكان هؤلاء المؤرخون علماء يدرسون تلاميذ من الشعب، ويؤلفون كتبهم لهؤلاء التلاميذ، وللشعب أيضا، غير معتمدين على الخلفاء فى الغالب، إلا عند الشدائد .

والظاهرة الأخرى هى صحة الأخبار المروية عن الحوادث الإسلامية خاصة، وقد أتتهم هذه الصحة من الطريقة التى عالجوا بها هذه الأخبار. فهم لم يأخذوا إلا عن العدول الثقات، واتبعوا فى ذلك ما اتبعه علماء الحديث فى نقدهم، فسلمت لهم مجموعة كبيرة من الحوادث. وأتت هذه الصحة أيضا من ابتكارهم التوقيت الكامل، حتى كانوا يوقتون الحوادث بالأيام والشهور والأعوام. وذلك مما يدعو إلى التدقيق فى الأخبار وصحتها. حقا، إن هذا التوقيت بدأ ضعيفا مضطربا. ولكن الروايات المختلفة من المصادر المتباينة جعلتهم يطمئنون إلى بعض التواريخ ويستطيعون أن يتحققوا من صحتها .

ولكن هذه الروايات الكثيرة التى كانت تعتمد غالبا على الذاكرة سببت بعض وجوه النقص والفوضى. فإن النسيان اعترى بعض هؤلاء المؤرخين، فجعل بعض رواياتهم يضطرب، ويسوده الفوضى. ولكن على الرغم من هذا يجب أن نقول إن تلك الظاهرة كانت نادرة، وكان المؤرخون يكتشفونها سريعا بفضل الروايات الأخرى الآتية عن مصادر مخالفة للأولى .

وأدت العناية بالروايات المختلفة والأسانيد المتنوعة إلى التكرار إلى درجة الإملال. فالحادث الواحد يوصف عدة مرات، دون أية زيادة أو تفصيل، على حسب الأسانيد المختلفة التى روته ولكن هذه الظاهرة – فيما يبدو – كانت سائدة

فى الكتب الكبيرة وحدها. أما الرسائل الصغيرة فقد نجت من هذه الظاهرة، كما يبدو من سيرة سليمان بن طرخان .

وجعلهم تأثرهم بالأحاديث يصبون كل نقدهم على الأسانيد دون النصوص، مما يسر الانتحال والاختراع. فإن الإسناد يمكن اختراعه بسهولة. وهكذا يمكن القول بدخول بعض الموضوعات فى الميدان التاريخي، وإن كانت هذه الظاهرة يجب النظر إليها على أنها ضعيفة نادرة بسبب نقدهم الشديد للرجال. ولكن لم يكن هذا النقد ذا فائدة كبيرة فى ميدان التاريخ القبلى والقصصى والإسرائيليات .

وآخر الأمر نجد التاريخ الإسلامى بجميع صوره يسير على النمط المعروف عن الرواة الجاهليين، من سوق القصة التاريخية، وتقطيعها بالأشعار التى قد تشرح شيئا من الحوادث أو تعلق عليها، أولا تتصل بها إلا اتصالا طفيفا، وكذلك يعنون بسرد الرسائل والوثائق منذ أوائل عهدهم بالتاريخ .

وإذا ما أحببنا أن نتكلم عن أسلوب الكتب عامة، وجدناه عربيا سهلا بسيطا مبينا، ونجد تصوير الحوادث فيه وضوح وقوة وحياة، حتى ليشعر المرء بالحوادث تقع أمامه، لولا تقطع القصة بالأشعار والتكرار .

ونختم كلامنا عن الكتابة التاريخية بذكر المدارس التاريخية، التى ربما شعر بها القارئ من قبل. فإننا عند تدقيق النظر فى تطور الحركة التاريخية نجد أن هناك ثلاث مدارس واضحة كل الوضوح .

المدرسة الأولى فى الظهور هى المدرسة اليمنية التى يمثلها عبيد بن شرية، ووهب بن منبه. وهى المدرسة التى تظهر فيها الكتابة التاريخية العربية للمرة الأولى. وهى تعنى بأخبار أهل الكتاب، وتاريخ اليمن، وتسرد التاريخ قصصا خيالية

وأساطير شعبية. فهى تمثل استمرار التيار الجاهلى أصدق تمثيل، ولذلك نستطيع أن نطلق على مؤرخيها اسم القصاص الشعبيين، أو الإخباريين، وعلى كتاباتهم اسم الروايات التاريخية .

والمدرسة الثانية مدرسة المدينة، وهى تتألف من الفقهاء والمحدِّثين من أمثال أبان وعروة والزهرى. وهى مدرسة التاريخ العلمى الدقيق الذى يعنى بالسيرة والمغازى ويسير على خطا علم الحديث، ويعنى بالأسانيد، وتتطور مادة هذه المدرسة، فتتسع وتشمل تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين .

وأما المدرسة الثالثة والأخير فى الوجود فمدرسة العراق، ويمثلها عوانة وأبو مخنف الكلبى وغيرهم. وهذه المدرسة واسعة الصدر تعنى بكل تيارات التاريخ الجاهلى والإسلامى. وتعطى عناية خاصة لتاريخ الخلفاء، وكان من أثر عنايتهم تلك أن احتل العراق المراكز الأولى فى هذه التواريخ. لذلك نجد تاريخ العراق وأحداثه مفصلة مطولة لدينا، بينما الأمصار الأخرى، لا تنال غير الإشارات .

ثم نجد هذه المدارس الثلاث تلتقى فتخرج لنا محمد بن إسحاق. فيتناول هذا المؤرخ تاريخ اليمن وأهل الكتاب مثل اليمنيين، ويتناول السيرة مثل المدنيين، وتاريخ الخلفاء مثل العراقيين. بل نجد عنده خصائص المدارس الثلاث، من قصص شعبية، وأسانيد، وأشعار لتحلية القصص، ومن أخبار أهل الكتاب، وباختصار جميع ما فى المدارس يوجد عند محمد بن إسحاق.

خـاتـمـة

هذه هى الكتابة العربية فى نشأتها، قد عرضتهـا فـى مراحلهـا المختلفـة عرضـا شاملا، مدققا، يحاول أن ينفذ إلى الأعماق، ويستكشف فى الظلمات، مـا يستهدى به إلى السبيل السوى .

وقد رأينا العصر الجاهلى لا يعرف من الكتابة غير بعض المعـاهدات والأحـلاف وبعـض العقـود التجاريـة، ومـا إلى ذلـك ممـا يمكـن تسـميته بالكتابـات السياسـية والاقتصادية أما الكتابة الفنية فلم يعرفها ذلك العصر، ولم تصل إلينا منه أية شـواهد كتابية فنية .

وعندما جاء الإسلام انتشرت الكتابة انتشارا كبيرا، وظهرت الرسائل المتبادلـة بين النبى والرؤساء، وبين الخلفاء والولاة، بـل ظهـرت أنـواع كثـيرة مـن الكتابـات السياسية، والكتابات الدينية، والكتابـات الإخوانيـة. ولكنهـا كـانت كتابـة صريحـة بسيطة لا ترمى إلا إلى مجرد الإفهام، دون محاولة للتزين أو التجمل، وإن كـانت فـى أواخر الصدر الأول من الإسلام ظهرت عليها بعض المظاهر التى تنبئ عما ينتظرهـا فى العصر القادم من عمل وفن .

ومنذ أوائل العصر الأموى ظهر كُتاب محترفون، وظهر ديوان الرسائل. فعرفت الرسائل الفن، وتنافس الكتاب فى إظهار البراعة والفصاحة، ليكسبوا رضى الخلفـاء وعطفهم. فظهرت أمامنا عدة ظواهر تدل على تطور الكتابـة وترقيهـا فهـذا كـاتب يطيل، وذلـك يكـثر مـن الغريـب، وثـالث يسـتعمل السـجع، ورابـع ينتقـى ألفاظـه ويهذب صيغتها، إلى غير ذلك .

وأخيرا تظهر حلقة من الكتاب فى بلاط هشام بن عبد الملك يتزعمهم سالم مولاه، فتأخذ من الثقافات اليونانية والفارسية ما تجمل به أفكارها وأساليبها. وتتمثل هذه المدرسة بأجلى مظاهرها، وأوضح خواصها، فى عبد الحميد الكاتب، الذى كان يمثل أيضا تطور الخصائص الكتابية منذ البداية إلى النهاية. فعبد الحميد إذن العَلم البارز فى الصدر الأول من تاريخ الكتابة العربية الفنية، وهو الذى اطلع على كتابات من سبقه، وتشبع بها، وهضمها، وأخرجها خصائص يتحلى بها وكأن لم يتحل بها أحد قبله. ولكن عبد الحميد - كما رأينا - لم يكن متبعا فحسب، بل كان مبتدعا أيضا، مبتدعا فى أسلوبه الذى لم يرتفع إليه أحد قبله، ومبتدعا فى أفكاره التى استخلصها من المصادر الثقافية المختلفة فى الشرق العربى فى ذلك العصر. فكان العلم البارز من بين سابقيه، والمنار الهادى للاحقيه، ينظر إليه كل من أراد الجمال والفصاحة فى كتابته .

وصفوة القول إن كتابة الرسائل بجميع أنواعها نشأت فى عصر مبكر، بدافع من الظروف والعوامل التى كانت تحرك الجماعة العربية فى عصرها ذلك. فهى ثمرة الثورة التى قام بها الإسلام، وأخضع العرب لها، أمدهم بأسسها التى يقيمون عليها حياتهم الجديدة. وإذن فكتابة الرسائل الفنية العربية كانت ظاهرة حتمية لم يتجنبها العرب، وما كانوا مستطيعين أن يتجنبوها، بعد أن دفعهم القرآن تلك الدفعة، التى ذهبت بنظمهم الجاهلية السياسية أدراج الرياح، وأقامت نظما أخرى سامية الذرى، شامخة البنيان. فالعرب ما كانوا يستطيعون بعد انتشار الإسلام أن يرجعوا إلى جزيرتهم، وأن يرجعوا إلى نظمهم القبلية فى الحياة الاجتماعية والسياسية. وكذلك ما كانوا قادرين على الرجوع إلى الشعر والخطابة وحدهما فى حياتهم الأدبية. وإذن نعود إلى القول بأن الكتابة الفنية العربية وليدة الثورة التى قام بها محمد عليه

الصلاة والسلام، فغيرت من تاريخ العرب كل تغيير، وحولت أنظار العالم القرون الطوال إلى تلك الأصقاع الإسلامية، التى سترى من الحضارة والرقى ما لم يره كثير من شعوب العالم المتمدين .

ونحن نرفض القول بأجنبية كتابة الرسائل الفنية كل رفض، فهى ليست مما أدخله الفرس أو اليونان على العرب، وليست مما أدخله غير الفرس واليونان، وإنما هى ظاهرة عربية خالصة، لايد فى نشأتها لأحد غير العرب الذين فتح الإسلام أبصارهم وأفهامهم، وأمدهم بالروح الذى سيبلغ بهم إلى ابتكار ما لم يعرفوا، وإلى الاتصال بما لم يتصلوا به من قبل، وإلى الشغف الشديد، والحماس المفرط، بالعلم والمعرفة. ولكن رفضنا هذا لا يشتط إلى درجة رفض كل تأثير أجنبى، بل نحن نقبل هذا التأثير، ونقول بوجوده، وربما بقوته. فهؤلاء الموالى سرعان ما ينافسون العرب فى هذا الميدان، منافستهم لهم فى الميادين الأخرى، وسرعان ما يزاحمونهم على مورد الكتابة الفنية، ولقد اغتصبوه أخيرا. فكان عبد الحميد وأستاذه بشرى للموالى بما سيكون لهم من مكانة فى هذا الميدان فى مقتبل الزمان .

وإذا كنا نرفض القول بأجنبية كتابة الرسائل الفنية، فإننا أشد رفضا للقول بأجنبية الكتابة التاريخية العربية. فقد ظهرت هذه الكتابة من العناية بالأحاديث الشريفة وجمعها. فعلم التاريخ العربى الإسلامى وليد علم الحديث الإسلامى العربى المحض .

أما ما كان فى الجاهلية فأقاصيص خرافية وأساطير شعبية عن الأيام والملوك العرب والفرس، وربما الرومان. أما نشأة كتابة التاريخ المنظمة الدقيقة فكانت على يد العرب من المسلمين بدافع من العناية بجمع الأحاديث. وكانت هذه الكتابة سريعة التطور، من مجرد جمع لأحاديث دون رابط بينها، إلى تدوين لتاريخ الأنبياء، وتاريخ العرب الجاهليين والإسلاميين على يد ابن إسحاق، فى مدى قرن من الزمان تقريبا .

وقد رأينا عند العرب ثلاث مدارس تاريخية، كلها عربى النشأة، وكلها يستمد تقاليده مما كان شائعا عند العرب فى الجاهلية، ومما استحدثه الإسلام. وقد نقول إن الموالى زاحموا العرب فى هذه الكتابة أيضا، ولكنا نقول ذلك على أنهم تناولوا هذه الكتابة بعد أن أعطاها العرب الصورة التى ستبقى عليها فى يد هؤلاء الموالى، ولن يدخلوا عليها غير قليل من التعديل، وإن أدخلوا فى الأخبار نفسها كثيرا مما جلبوه من بلادهم وثقافاتهم .

وإذن نستطيع أن نصرح، ونحن على أهبة وضع القلم، بأن الكتابة الفنية العربية، بجميع صورها من رسائل سياسية، ودينية، وإخوانية، ومن كتابة تاريخية، عربية النشأة، لم تأتهم عن فرس أو يونان أو هنود، وإنما نشأت على يدهم وفى بلادهم، وبدافع من حاجتهم إليها، ووحى مما خلقه الإسلام من تيارات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية تسيطر على الجماعة العربية. ولكنها ما كادت تسير قليلا حتى أمدتها الروافد من كل جانب، روافد هندية وفارسية من الشرق، وروافد هلينية من الشمال والغرب، والشرق أيضا، وروافد أخرى ضئيلة الأثر. وقد لا تظهر هذه الروافد فى عصرنا هذا، ولكن ستظهر وتؤتى ثمارها فى العصور القادمة.

المـــراجـــع

١- أوليرى، بلاد العرب قبل الإسلام، طبع ١٩٢٧ .

Oleary: Arabia before Muhammed

٢- أحمد أمين، فجر الإسلام ١٩٢٨ .

٣- البلاذرى، فتوح البلدان، تحقيق دى غويه .

٤- ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا بالاشتراك .

٥- خليل يحيى نامى، أصل الخط العربى وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، طبع ١٩٣٥م .

٦- الجهشيارى، الوزراء والكتاب، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا بالاشتراك .

٧- السيد عبد الحى بن عبد الكبير الحسنى الكتانى الإدريسى الفاسى، التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية فى المدينة المنورة، طبع الرباط .

٨- زكى مبارك، النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى، طبع دار الكتب المصرية .

٩- مرسيه، المجلة الإفريقية، العددان ٣٣٠ ، ٣٣١ ، عام ١٩٢٧ .

Marcais: Revue Africaine, Nos 330, 331 (perme Trumestre, 1927)

١٠- طه حسين، من حديث الشعر والنثر، الطبعة الأولى .

١١- الطبرى، التاريخ، طبع أوربا .

١٢- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، طبع أوربا .

١٣- الأزرقى، أحبار مكة، المطبعة الماجدية .

١٤- ابن عبد البر، الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، طبع الهند .

١٥- شوقى ضيف، الفن ومذاهبه فى النثر العربى، ١٩٤٦م .
١٦- ابن النديم، الفهرست، طبع أوربا .
١٧- ابن سعد، الطبقات الكبير، طبع أوربا .
١٨- هوروفتس، المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف، طبع الخانجى .
١٩- الحيدر آبادى، مجموعة الوثائق السياسية فى عهد النبوة، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
٢٠- اشبيربر: كتب محمد إلى القبائل العربية Dr. Sperber: Die Schriben Muhammads an die Stámme Arabiens - Mitteilugngen des Seminars fúr Sprachen
٢١- أنيس المقدسى، تطور الأساليب النثرية، طبع بيروت .
٢٢- القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، طبع دار الكتب المصرية .
٢٣- أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب، طبع الحلبى ١٩٣٧ .
٢٤- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ١٩٠٤ .
٢٥- أبو نعيم الأصبهانى، حلية الأولياء، طبع الخانجى .
٢٦- رسالة الحسن البصرى، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٢١ أدب .
٢٧- ياقوت ، معجم الأدباء، تحقيق مرجليوث .
٢٨- الدينورى، الأخبار الطوال، طبع ليدن .
٢٩- ابن خلكان، وفيات الأعيان .
٣٠- محمد كرد على، أمراء البيان ١٩٣٧م .
٣١- دائرة المعارف الإسلامية، مواد "تاريخ" و "سيرة" ومواد أسماء المؤرخين .

٣٢- عبد الحميد العبادى، علم التاريخ تأليف هرنشو، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
٣٣- ابن حجر، تهذيب التهذيب، طبع الهند .
٣٤- وهب بن منبه، كتاب التيجان، طبع الهند .
٣٥- كرنكو، أقدم كتابين فى الأدب الشعبى الإسلامى، مجلة الثقافة الإسلامية، ١٩٢٧ .
٣٦- حاجى خليفة، كشف الظنون، طبع أوربا .
٣٧- الذهبى، تراجم رجال روى محمد بن إسحاق عنهم، تحقيق فيشر .
٣٨- البلاذرى، الأنساب، تحقيق آلورد .
٣٩- سخاو، القطعة البرلينية من مغازى موسى بن عقبة .
٤٠- عبيد بن شرية، أخباره، طبع الهند .
٤١- سليمان بن طرخان، السيرة الصحيحة، تحقيق فون كريمر .
٤٢- مرغليوث، محاضرات عن التاريخ العربى - طبع الخانجى .
٤٣- الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، طبع الخانجى .

انتهى بحمده تبارك وتعالى